أ.د. عبد المعطى جاب الله سالم

الدلالة والاشتقاق فى اللغة إعجاز القرآن

بين النحو والبيان



دار الكتاب الحديث

الدلالة والاشتقاق في اللغة إعجاز القرآن

بين النحو والبيان

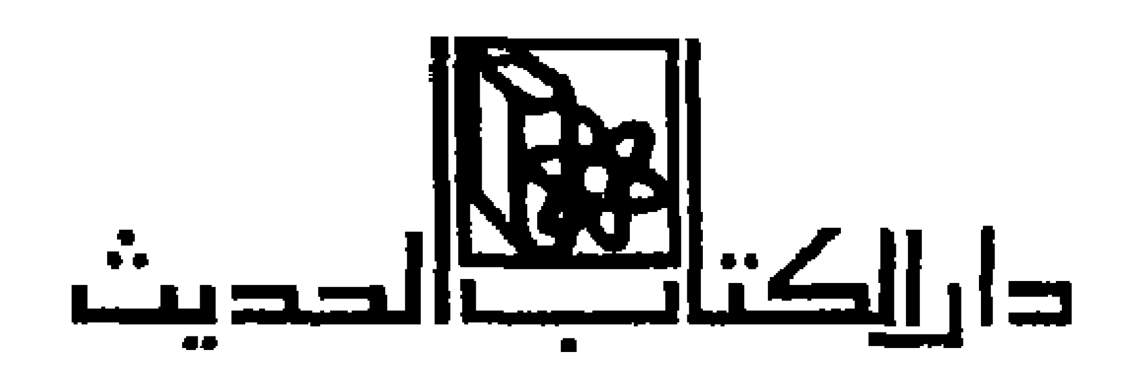
الأستاذ الدكتور

عبد المعطي جاب الله سالم



299.7 سالم ،عبد المعطى جاب الله
س ا ا د الدلالة والاشتقاق فى اللغة : اعجاز القرآن بين النحو
والبيان / عبد المعطى جاب الله سالم.- ط 1.- القاهرة:دار
الكتاب الحديث ،2009م .
116 ص ؛ 24 سم .
تدمك:X -199-350-977

1- القرآن – اعجاز. 2 –البلاغة العربية .
أ – العنوان .



القاهرة	القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم – مدينة نصر –94 شارع عباس العقاد : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : **dkh_cairo@yahoo.com**
الكويت	13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 –شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : **ktbhades@ncc.moc.kw**
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail_ **dkhadith@hotmail.com**

رقم الإيداع	2008/13288
I.S.B.N	977- 350-199 -X

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فقد راودتنى طويلاً فكرة الكتابة فى موضوع الإعجاز القرآنى من الناحية النحوية، فقد كان القرآن الكريم دائما هاديا للنحاة فى وضع قواعدهم، وقد أمدهم بما يبتغونه من الأمثلة التى بلغت الذروة فى المعنى والمبنى.

وقد عقدت دراسات تناولت كتاب الله تعالى بالدراسات النحوية فدرست الحروف فى القرآن الكريم كل حرف على حدة، ودرست الجمل، ودرست الأدوات وغير ذلك من الدراسات التى أثرت المكتبة العربية.

والقرآن فى كل وقت وحين ميدان للدرس ومجال للبحث فى سائر العلوم، وهو يمد الدارسين بفيض لا مثيل له فى كل المجالات.

وقد تكلم علماء البلاغة عن إعجاز القرآن، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجانى الذى تكلم عن إعجاز القرآن الكريم من ناحية النظم، وأخذ يشرح ذلك من وجهة النظر البلاغية.

وقد قلت فى نفسى أفلا يكون للنحو مجال فى الكتابة عن مثل هذا الموضوع فيتناول الإعجاز من وجهة النظر النحوية.

ثم أخذت أتنبه عند قراءتى لنحو بعض الآيات إلى أن فيها أسراراً نحوية يعجز عن مثلها البشر، فنجد القرآن الكريم قد استعمل حرفاً فى مكانه وحذفه، فى نفس التعبير، فى موضع آخر.وإذا ما أجلت النظر وجدت أن هناك سرا عظيما، وأنه لو وضع هذا الحرف فى هذا الموضع لذهب ذلك السر العظيم، ونجد أيضا أن القرآن الكريم حذف فى مقام وذكر فى مقام، وكرر فى مقام ولم يكرر فى غيره، وقدم فى مقام وأخر فى مقام.

وقد تهيبت الكتابة فى هذا الموضوع فترة من الزمان لا لشيء إلا لإحساسى بالضآلة أمام عظمة القرآن وأسراره، وما شجعنى على الكتابة فيه إلا أن أنال شرف فتح باب الكتابة فى هذا المجال لكل من رزقه الله فهما لأسرار فى كتاب الله تعالى، وليكون ذلك البحث باكورة كتابات تترى فى هذا الموضوع، وما أقدمت إلا للطائف وقفت عليها، وبلغت فى نفسى مبلغاً كبيراً فأحببت أن أبثها فى ذلك البحث، فتناولت بعض الأمور التى تنجلى من خلالها الحكمة والسر فى التعبير وفى بناء الجملة وما يثبت أنه جاء على أقصى درجة من العظمة والكمال مما تشهد به الصناعة النحوية قال تعالى: ﴿ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء].

فإذا كان كل ما جاء فيه لحكمة وسر فذلك هو تمام الإعجاز، فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأبلغ أسلوب.

أ.د. عبد المعطي جاب الله سالم

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنين بدسوق

إعجاز القرآن

المعجزة أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد نبى، ويكون مقروناً بالتحدى، سالماً عن المعارضة.

والمعجزات تكون حسية وعقلية.

وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية، لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم.

ولأن النبى ﷺ خاتم الأنبياء شاء الله أن تكون معجزته الكبرى معجزة عقلية دائمة، ليراها ذوو البصائر. كما قال ﷺ:

"ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً" أخرجه البخارى.

فالمعجزات الماضية كانت حية تشاهد بالأبصار، كناقة صالح، وعصا موسى، أما معجزة القرآن فتشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذى يشاهد– وينظر إليه بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده أما الذى يشاهده الناس بعقولهم فهو باق. وكتاب الله معجز، لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بأن يأتوا بمثله، وبأن يأتوا بثلاث سور، وبأن يأتوا بسورة وهم الفصحاء والخطباء المصاقع، والشعراء، والحكماء. وقد كانوا قوماً لداً، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، ومحاربته، فلو كان فى مقدروهم معارضته لعمدوا إليها، لكنهم عدلوا عن ذلك إلى العناد تارة والاستهزاء أخرى، فقالوا تارة إنه سحر، وتارة إنه شعر، وتارة إنه أساطير الأولين، وقد رضوا بعد ذلك إلى الاحتكام إلى السيف، وتعرضوا للقتل والسبى، فكان أهون عليهم أن يعارضوا القرآن وأن يأتوا بمثله ليبطلوا أمره، فلو علموا أن بمقدروهم الإتيان بمثله لبادروا إليه.

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: "جاء الوليد بن المغيرة إلى النبى ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك

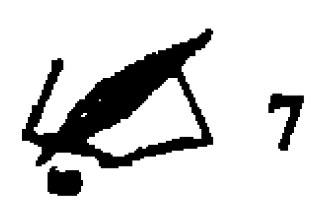
يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، لئلا تأتى محمداً. قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعنى حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره" .

قال الجاحظ: بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً؛ وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر، وأزال الشبهة، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب، ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف؛ فلذلك يمكنك مالا يمكننا. قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو طبع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمته لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال

البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم، فمحال- أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض، فكيف بالظاهر! وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه، ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه! انتهى[1].

فمعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يوجد عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون.

(1) ينظر الإتقان 4/6، 7.



من وجوه الإعجاز في القرن الكريم

الإعجاز في البناء النحوى للقرآن:

لابد للكلام البليغ من مراعاة لمعانى النحو وتوخيها، ويحدث التفاضل فى الكلام بالإبداع فى بناء الجملة على وفق ما تقتضيه قواعد النحو.

كأن تخبر بالاسم أو بالفعل، أو تضيف كلمة إلى كلمة، أو تقدم أو تؤخر، أو تعطف أو تستأنف أو غير ذلك.

ويجلى لنا عبد القاهر بأسلوبه البلاغى كيف يعتمد الفكر معانى النحو حيث يقول[1]:

"ومما ينبغى أن يعلمه الإنسان، ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعانى الكلم أفراداً ومجردة من معانى النحو، فلا يقوم فى وهم ولا يصح فى عقل أن يتفكر متفكر فى معنى فعل من غير أن يريد إعمال فاعل فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد منه حكماً سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أو صفة أو حالاً أو ماشاكل لذلك. وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أى كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معانى النحو فيها فقل فى: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل":

ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها".

ومن الإعجاز النحوى فى القرآن الكريم: تنوين "عزير" وكتابة ألف (ابن) فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ... ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

وذلك لأن عزيراً اسم عربى من التعزير وهو التعظيم، وهو اسم متمكن أمكن، مخبر عنه بابن، لا موصوف به[2]، وقد أفاد التنوين أن كلمة (ابن) ليست صفة له بل هى خبر عنه، وقد كذبهم الله تعالى فى هذا الحكم وهذا الخبر. والوجه

---

(1) دلائل الإعجاز ص314، 315.

(2) انظر إتحاف فضلاء البشر 2/89.

إثبـات التنوين لأن (ابن) خبـر، وإنما يحـذف التنوين فى الصـفـة[1]. ولو حـذف التنوين لـدل ذلك عى أن (ابن) صـفـة لعزير، فيكون التكذيب ليس موجـهـاً إلى كونه ابن الله، بل يكون الخبر حـينئـذ محذوفاً ويكون والتقـدير: "عـزير بن الله إلهنا" فيكون التكذيب موجهاً إلى الوصف، كما تقول: زيد الظريف جاءنى، فإذا وصفت كلامه بالكذب تكون قد كذبت مجيئه، ولم تكذب كونه ظريفاً. وعليه لو حذف التنوين يكون تكذيبهم فى حكمـهم عليه بالألوهية، ويكون اعتـرافاً بكونه ابن الله.

وقد فصل عبد القاهر ذلك بقوله:

"والوجـه الثـانى أن يكون الابن صـفـة، ويكون التنوين قد سـقط على حـد سـقـوطه في قـولنا: (جـاءنى زيد بن عـمـر و) ويكون فى الكلام مـحـذوف، ثم اختلفوا في المحذوف فمنهم من جعله خبراً، فقدر (وقالت اليهود عزير بن الله معبودنا) وفى هذا أمر عظيم، وذلك أنك إذا حكيت عن قائل كلاماً أنت تريد أن تكذبه فيه، فإن التكذيب ينصرف إلى ما كان فيه خبراً دون ما كان صفة.

تفـسير هذا أنك إذا حكيت عن إنسـان أنه قال: (زيد بن عـمرو سيـد) ثم كـذبتـه فـيـه لم تكن قـد أنكرت بذلك أن يكون زيد ابن عـمـر، ولكـن أن يكون سيداً، وكذلك إذا قال: زيد الفقيه قد قدم، فقلت له: كذبت أو غلطت، لم تكن قد أنـكرت زيد فقيهاً ولكن أن يكون قد قدم هذا مالا شبهة فيه، وذلك أنك إذا كذبت قائلاً فى كلام أو صدقته فإنما ينصرف التكذيب منك والتصديق إلى إثباته ونفـيـه، والإثبـات والنفى يتناولان الخبـر دون الصـفـة، يدلل على ذلك أنك تجـد الصـفة ثابتـة فى حال النفى كثبوتها فى حـال الإثبات، فإذا قلت: (ما جاءنى زيد الظريف) كان الظُرف ثابتاً لزيد كثبوته إذا قلت (جاءنى زيد الظريف).

---

(1) حجة القراءات ص318.

وإذا كان الأمر كذلك كان جعل الابن صفة فى الآية مؤدياً إلى الأمر العظيم، جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين وعن جميع ما يقول الظالمون علواً كبيراً"(1).

ومن هنا أعطانا التنوين ذلك المعنى الكبير وهو كون ابن ليس صفة لعزير.

وكذلك إثبات ألف ابن دليل على أن (ابن) خبر وليس صفة.

يقول مكى: "إذا جعلت ابناً خبراً أثبت ألف الوصل فى الخط فى (ابن) فإذا جعلته صفة لم تثبت الألف فى الخط"(2).

فانظر إلى دقة الأداء القرآنى من الناحية النحوية وكيف بلغ الغاية من الإتقان والحكمة.

من الإعجاز النحوى فى القرآن الكريم: حذف المبتدأ فى قوله تعالى:

﴿ ... ولا تقولوا ثلاثة ... (١٧١) ﴾ [النساء].

والأصل: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة. ولو لم يحذف المبتدأ لم يستقم الكلام وذلك أنه إذا قيل ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة كان النفى موجهاً إلى عدد الآلهة لأن النفى لا يكون موجهاً إلى المبتدأ، بل يكون دائماً موجهاً إلى الخبر، فكان ذلك سيؤدى إلى شبه الاعتراف بأن هناك آلهة إلا أنهم ليسوا ثلاثة.

يقول الإمام عبد القاهر:

"وذلك أنا إذا قلنا: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة: كان ذلك، والعياذ بالله، شبه الإثبات أن ههنا آلهة من حيث إنك إذا نفيت فإنما تنفى المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ، ولا تنفى معنى المبتدأ. فإذا قلت: ما زيد منطلقاً كنت نفيت الانطلاق الذى هو معنى الخبر عن زيد، ولم تنف معنى زيد، ولم توجب عدمه. وإذا كان ذلك فإذا قلنا (ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة

---

(1) دلائل الإعجاز 288، 289.

(2) الكشف عن وجوه القراءات 1 / 501.

ثلاثة، ولم ننف أن تكون آلهة – جل الله تعالى عن الشريك والنظير– كما أنك إذا قلت : ليس أمراؤها ثلاثة : كنت قد نفيت أن تكون عدة الأمراء ثلاثة، ولم تنف أن يكون لكم أمراء[1]" .

وقد أشرنا فى أبحاث سابقة إلى الكثير من هذه الأسرار النحوية فى القرآن الكريم.

(1) دلائل الإعجاز ص290.

حكمة القرآن فى العطف بالواو
وإعجازه فى ذلك

ما قرره النحاة فى العطف بالواو قد عبر عنه سيبويه بقوله: "قولك: (مررت برجل وحمار) فالواو أشركت بينهما فى الباء فجريا عليه، ولم تجعل للرجل منزلة بتقديمك إياه يكون بها أولى من الحمار، كأنك قلت: مررت بهما فالنفى فى هذا أن تقول: (ما مررت برجل وحمار) أى ما مررت بهما، وليس فى هذا دليل على أنه بدأ بشىء قبل شىء ولا بشىء مع شىء لأنه يجوز أن تقول: (مررت بزيد وعمرو) والمبدوء به فى المرور عمرو، ويجوز أن يكون زيداً، ويجوز أن يكون المرور وقع عليهما فى حالة واحدة.

فالواو تجمع هذه الأشياء على هذه المعانى، فإذا سمعت المتكلم يتكلم بهذا أجبته على أيها شئت لأنها قد جمعت هذه الأشياء.

وقد تقول: (مررت بزيد وعمرو) على أنك مررت بهما مرورين، وليس فى ذلك دليل على المرور المبدوء به كأنه يقول: ومررت أيضاً بعمرو. فنفى هذا ما مررت بزيد وما مررت بعمرو"(1).

وقد بنى سيبويه كلامه على إثبات نسبة المرور إلى الرجل والحمار ونفى أن يكون للرجل منزلة فى هذه النسبة، وقد أغفل أموراً أخرى تراعى عند النطق بمثل ذلك الكلام، وقد تنبه إليها ابن الحاجب فقال معقباً على كلام سيبويه:

"ولم يرد بنفى المنزلة إلا باعتبار نسبة المرور إليه، وإلا فلا يشك ذو أرب أن تقدم زيد على الحمار لمنزلته وشرفه، وذلك جار فى كلامهم كثيراً لأنهم يقدمون الأشرف ولكن ليس للغرض الذى نحن فيه من أن التقديم لا يوجب له مزية على الحمار بالنسبة إلى المرور"(2).

---

(1) الكتاب 1/218.

(2) الإيضاح فى شرح الفصل لابن الحاجب 2/205، 206.

وقد بين السهيلى أن هناك أموراً ترجح التقديم بقول :

" ما تقدم من الكلام فتقديمه من اللسان على حسب تقديم المعانى من الجنان، والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء، إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب وإما بالفضل والكمال. فإذا سبق معنى من المعانى إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها سبق اللفظ والدال على ذلك المعنى السابق وكان ترتب الألفاظ بحسب ذلك. نعم، وربما كان ترتب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى كقولهم (ربيعة ومُضَر) وكان تقديم (مضر) أولى من جهة الفضل ولكنهم آثروا الخفة، لأنك لو قدمت (مضر) فى اللفظ كثرت الحركات وتوالت، فلما أخرت وقف عليها بالسكون.

ومن هذا النحو "الجن والإنس" فإن الإنس أخف لفظاً لمكان (النون) الخفيفة و(السين) المهموسة، فكان تقديم الأثقل أولى بأول الكلام من الأخف لنشاط المتكلم وجمامه (أى راحته).

وأما فى القرآن الكريم فلحكمة أخرى سوى هذه قدم الجن على الإنس فى الأكثر والأغلب "[1].

"ولكن المتكلم يقدم فى كلامه الذى هو به أعنى وببيانه أهم استحساناً لا إيجاباً"[2].

وإذا قد ثبت لنا أن الواو العاطفة لا تفيد الترتيب فإن العاطف بها مخير بين التقديم والتأخير.

ولكننا إذا ما ذهبنا إلى القرآن الكريم لنرى كيف عطف بالواو وكيف بلغ الغاية فى الحكمة والدقة من التزام مالا يلتزمه البشر فى كلامهم، واتباع نهج معجز فى تقديم ما هو أولى وما العناية بذكره أكثر فإننا نجده لا يقدم إلا لحكمة ولا يؤخر

---

(1) نتائج الفكر للسهيلى ص267 وانظر بدائع الفوائد 1 / 61.

(2) رصف المبانى ص475.

إلا لحكمة، وقد يقدم فى موضع ويؤخر فى موضع آخر كل ذلك لعلة قد تدق فى الفهم وتلطف فى الإدراك.

ويظهر بذلك الفرق بين كلام الله عز وجل وكلام البشر فإن كلام الله عز وجل تستمر الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمراراً لا توجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى الغالب منه إلا فى الشيء اليسير المعدود، ثم تعرو الفترات الإنسانية فيعتريه النقص وتنقطع الفصاحة من تفاريق منه ثم هو يختلف فى منهاج النظم ودرجات الفصاحة. ومع القرآن الكريم فى العطف بالواو لنجد أنفسنا أمام طراز فريد فى نسقه ونظمه ومعناه وبلاغته.

تأمل هذا الترتيب البديع الدقيق المعجز فى قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة].

بدأ أولاً بذكر أصول العبد وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم لآبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبى الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويذبون عن دينهم لما فى ذلك من إزراء بهم. ثم ذكر الفروع وهم الأبناء، لأنهم يتلونهم فى الرتبة، وهم أقرب أقربائهم إليهم، وأعلق بقلوبهم وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة.

ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب، فذكر الأصول أولاً ثم الفروع ثانياً ثم النظراء ثالثاً.

ثم ذكر الأزواج رابعاً، لأن الزوجة أجنبية، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهى إنما تراد للشهوة والآباء والأبناء والأخوان يرادون للنصرة والدفاع وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامساً، وهى العشيرة وبنو العم فإن عشائرهم كانوا بنى عمومتهم غالباً ويمكن أن يكونوا أجانب فهم أولى بالتأخير.

ثم ذكر الأموال بعد الأقارب سادساً ووصفها بأنها مكتسبة لأن القلوب إلى ما اكسبته أميل، وله أحب، وبقدره أعرف لما حصل فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفواً بلا كسب وحرصه عليه أعظم من الثانى[1].

ثم ذكر التجارة سابعاً، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التى يحصله بها، فالتجارة هى وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مخوفة الكساد مما يدل على شرفها وخطرها.

ثم ذكر الأوطان ثامناً آخر المراتب، لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثانى مقام الأول من كل وجه ويكون خيراً منه، فمنها عوض، وهو وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم فمحبة الوطن آخر المراتب[2].

ولخص ذلك نظام الدين النيسابورى بقوله:

"والترتيب المذكور فى الآية فى غاية الحسن، لأن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة القريبة ثم البعيدة، ثم إنه يتوسل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال المكتسبة ثم التجارات المثمرة، وفى آخر المراتب الرغبة فى الأوطان التى بنيت للسكنى"[3].

وهذا هو الواقع لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئى لا كلى فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع[4].

(1) انظر البحر المحيط لأبى حيان 5/22، بدائع الفوائد 1/75، 76.

(2) انظر البحر المحيط 5/22.

(3) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان بهامش جامع البيان للطبرى 10/58.

(4) انظر بدائع الفوائد 1/76.

وأما آية آل عمران ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران].

فإنها لما كانت في سياق الإخبار عما زين للناس من الشهوات كانت البداءة بالأهم فالأهم، فقدم أولاً النساء لأنهن أكثر امتزاجاً ومخالطة بالإنسان، وهن حبائل الشيطان، قال عليه الصلاة والسلام "ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء". "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل منكن".

وقيل: فيهن فتنتان وفي البنين فتنة واحدة، وذلك أنهن يقطعن الأرحام والصلات بين الأهل غالباً وهن سبب في جمع المال من حلال وحرام غالباً، والأولاد يجمع لأجلهم المال، فلذلك ثنى بالبنين وقدمت على الأموال لأنها أحب إلى المرء من ماله.

وأما تقديم المال على الولد في بعض المواضع فإنما ذلك في سياق امتنان وإنعام أو نصرة ومعاونة وغلبة؛ لأن الرجال تستمال بالأموال.

ثم أتى بذكر تمام اللذة وهو المركوب البهى من بين سائر الحيوانات ثم أتى بذكر ما يحصل به جمال حين تريحون وحين تسرحون كما تشهد به الآية الأخرى ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل].

ثم ذكر ما به قوامهم وحياة بنيهم وهو الزروع والثمار"[1].

وإنما كان الجمال في الأنعام أكثر لأنها ينتفع بها ركوباً وأكلاً وشرباً ولباساً وأمتعة وأسلحة ودواء وقنية إلى غير ذلك[2].

وانظر كيف قدم تريحون على تسرحون في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل].

---

(1) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 3/61، 62 بتصرف، انظر بدائع الفوائد 1/76، 77.
(2) انظر بدائع الفوائد 1/77.

وذلك لأن الجمال عند الرواح أكثر لشبعها وامتلائها وحسن منظرها حيث تعود من المرعى حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع ثم تأخذ فى التفرق والانتشار إلى المرعى فى البرية فظهر من هذا أن الجمال فى الإراحة أكثر منه فى التسريح[1].

ثم ما الحكمة فى تقديم السجود على الركوع فى قوله تعالى: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [آل عمران] مع أن الركوع قبله بالطبع والزمان والعادة؟

قال أبو حيان: "أمرتها الملائكة بفعل ثلاثة أشياء من هيئات الصلاة فإن أريد ظاهر الآيات فهى معطوفة بالواو والواو لاترتب فلا يسأل لم قدم السجود على الركوع إلا من جهة علم البيان"[2].

وقد ذكر فى الجواب عن ذلك وجوه كثيرة منها:

أن السجود لما كان الهيئة التى هى أقرب ما يكون العبد فيها إلى الله قدم وإن كان متأخراً فى الفعل فيكون إذ ذاك التقديم بالشرف، وقيل: كان السجود مقدماً على الركوع فى شرع زكريا وغيره وقيل غير ذلك[3].

وأحسن ما قيل فى ذلك أنه لم يرد الركوع وحده دون سائر أجزاء الصلاة ولكنه عبر بالركوع عن الصلاة كلها، كما تقول: "ركعت ركعتين وركعت أربع ركعات" إنما تريد الصلاة إلى الركوع وأراد صلاتها مع المصلين.

وقد عبر بالسجود عن الصلاة كلها وأراد صلاتها فى بيتها لأن صلاتها فى بيتها أفضل لها من صلاتها مع قومها فصارت الآية متضمنة لصلاتين: صلاتها وحدها وعبر عنها بالسجود، لأن السجود أفضل حالات العبد وكذلك صلاة المرأة

---

(1) انظر البحر المحيط 5/476، وبدائع الفوائد 1/77.

(2) البحر المحيط 2/456.

(3) انظر المصدر السابق 2/456، 457.

فى بيتها أفضل لها، ثم صلاتها فى المسجد، وعبر عنه بالركوع لأنه فى الفضل دون السجود وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها فى بيتها ومحرابها.

ذكر هذا السهيلى فى نتائج الفكر وقال: "هذا نظم بديع وفقه دقيق"[1].

ونقله ابن قيم الجوزية بنفس النص دون أن يشير إلى أنه كلام السهيلى[2].

وقال الله تعالى: ﴿ ... وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج].

بدأ بالطائفين للرتبة والقرب من البيت المأمور بتطهيره من أجل الطوافين.

الحكمة فى جمعهم جمع السلامة:

جمع الطائفين جمع سلامة لأن أدل على لفظ الفعل الذى هو علة تعلق بها حكم التطهير، ولو كان مكان (الطائفين) (الطواف) لم يكن فى هذا اللفظ من بيان قصد الفعل فى قوله: (للطائفين) ألا ترى أنك تقول: (تطوفون) كما تقولون: (طائفون) فاللفظان متشابهان.

ثم يلى الطائفين فى الترتيب قوله تعالى(القائمين) لأنه فى معنى العاكفين، وهو فى قوله: ﴿ ... إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران] أى ملازماً مثابراً، وهو كالطائفين فى تعلق حكم التطهير به.

ثم يليه فى الرتبة (الركع السجود) لأن المستقبلين البيت بالركوع والسجود لا يختصون بالقرب منه كالطائفين والعاكفين، ولذلك لم يتعلق حكم التطهير بهذا الفعل، وأنه لا يلزم أن يكون فى البيت ولا عنده، فلذلك لم يجئ بلفظ جمع السلامة، لأنه لا يحتاج فيه إلى بيان لفظ الفعل كما احتيج فيما قبله[3].

---

(1) نتائج الفكر ص272.

(2) بدائع الفوائد 1/ .

(3) انظر نتائج الفكر للسهيلى ص273.

وقيل: جمعا جمع تكسير لمقابلتهما بما قبلهما من جمعى السلامة فكان ذلك تنويعاً فى الفصاحة وخالف بين وزن تكسيرها تنويعاً فى الفصاحة أيضاً[1].

السر فى ترك عطف السجود على الركع:

لم يعطف السجود على الركع لأن الركع هم السجود، والشىء لا يعطف بالواو على نفسه.

وهناك فوائد أخرى هى: أن السجود أغلب ما يجئ عبارة عن المصدر، والمراد بها هاهنا الجمع، فلو عطف بالواو لتوهم أنه يريد السجود الذى هو المصدر دون الاسم الذى هو النعت.

وفائدة ثالثة هى: أن الراكع إن لم يسجد فليس براكع فى حكم الشريعة، فلو عطف هنا بالواو لتوهم أن الركوع حكم يجرى على حياله[2].

السر فى التعبير بالسجود بدلاً من السجد:

انظر إلى حكمة الله عز وجل ودقة التعبير وإعجازه فى الإتيان هنا بالسجود بدلاً من السجد بينما قال فى آية أخرى ﴿ ... **بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا** ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

وذلك أن السجود فى الأصل مصدر كالخشوع والخضوع، وهو يتناول السجود الظاهر والباطن، ولو قال (السجد) فى جمع (ساجد) لم يتناول إلا المعنى الظاهر، ولذلك قال: ﴿ ... **بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا** ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] لأنها رؤية عين وهى لا تتعلق إلا بالظاهر[3].

السر فى التعبير بالركع بدلاً من الركوع:

عبر عز وجل بـ (الركع) بدلاً من (الركوع) كما قال السجود لأن المقصود

---

(1) انظر البحر المحيط لأبى حيان 1 / 382.

(2) انظر نتائج الفكر للسهيلى ص274، والبحر المحيط 1 / 382.

(3) انظر نتائج الفكر ص274.

هنا هو الركوع الظاهر لأنه عطفه على ما قبله مما يراد به قصد البيت، والبيت لا يتوجه إليه إلا بالعمل الظاهر[1].

فمن لحظ هذه المعانى بقلبه، وتدبر هذا المعنى البديع بلبه، ارتفع بمعرفة الإعجاز عن التقليد، وأبصر اليقين أنه تنزيل من حكيم حميد.

ومن إعجاز القرآن الكريم ما يتجلى لنا من أسرار العطف بالواو بين (الجن والأنس).

حيث قدم الجن على الإنس فى أكثر المواضع، وقدم الإنس فى قوله تعالى: ﴿الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الجن].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ... ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

أما تقديم الجن على الإنس فى أكثر المواضع فهو لأن الجن متقدمون بالزمان، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

وأما تقديم الإنس على الجن فى قوله تعالى: ﴿الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن] فلأن النفى تابع لما تعقله القلوب من الإثبات، فيرد النفى عليه، وعلم النفوس بطمس الإنس ونفرتها مما طمثها الرجال هو المعروف، فجاء النفى على متقضى ذلك.

وكذلك قدم الإنس على الجن فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الجن] لأن الإنس مخاطبون بالقرآن أولاً، وهم مقدمون فى التصديق والتكذيب.

---

(1) انظر المصدر السابق ص274.

وفائدة أخرى وهى أن مؤمنى الجن لما رجعوا إلى قومهم وأخبروهم بما سمعوا من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولاً بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على الله كذباً، فذكرهم الإنس هنا فى التقديم أحسن فى الدعوة، وأبلغ فى نفى التهمة، لئلا يظن أنهم ظاهروا الإنس على الجن، وهذا من ألَفِّ المعانى وأدقها(1).

وأما تقديم الإنس على الجن فى قوله تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** ... (٨٨) ﴾ [الإسراء] فلأن الإتيان بمثل القرآن لو كان ممكناً فهو أليق بالإنس.

فقد يقدم القرآن فى موضع ويؤخر فى موضع آخر وبتدقيق النظر يظهر السر واضحاً جلياً.

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ... **فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ... (٢٨٤) ﴾ [البقرة].

قدم (يغفر) فى سورة وفى غيرها إلا فى سورة المائدة فى قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٤٠) ﴾ [المائدة].

وسر ذلك أن آية المائدة فى حق السارق والسارقة، وعذابهما يقع فى الدنيا فقدم لفظ العذاب، وفى غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه تعالى وترغيباً للعباد فى المسارعة إلى موجبات المغفرة(2).

وتلك المراعاة الدقيقة للمعانى من دقائق إعجاز القرآن الكريم فالكلام البشرى يكثر فيه التجوز ونسيان السوابق واللواحق دون كلام الحكيم سبحانه وتعالى.

وقد يذكر الواو فى موضع والفاء فى موضع آخر.

---

(1) انظر بدائع الفوائد 1/ 67.

(2) انظر أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى ص45، 46.

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ... (٣٥) ﴾ [البقرة] بالواو وجاء فى سورة الأعراف: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ... (١٩) ﴾ [الأعراف] بالفاء، جئ بالواو فى سورة البقرة لأنه عطف على (اسكن) من السكون الذى معناه الإقامة وهو يستدعى زماناً ممتداً، فلم يصلح إلا الواو لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، والواو للجمع.

ولو كانت الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفروغ من الإقامة، لأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب وهو غير مراد.

والذى فى الأعراف من السكنى التى معناها اتخاذ الموضع مسكناً، لأن الله تعالى أخبر فى الآية السابقة عليها أنه أخرج إبليس من الجنة وخاطبه بقوله عز وجل ﴿ ... اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ... (١٨) ﴾ [الأعراف].

وخاطب آدم بقوله: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة] أى اتخذها مسكناً، فكانت الفاء أولى لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زماناً ممتداً، ولا يمكن الجمع بين اتخاذ المسكن والأكل فيه، بل يقع الأكل عقب اتخاذ المسكن[1].

وقيل: إن ما فى الأعراف خطاب لهما قبل الدخول وما فى البقرة خطاب لهما بعد الدخول[2].

وقريب من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ... (٥٨) ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ... (١٦١) ﴾ [الأعراف].

---

(1) انظر أسرار التكرار ص25، 26 والبحر المحيط 4/ 408.

(2) انظر درة التنزيل وغرة التأويل، ص11.

جاءت الأولى بالفاء لأنها معطوفة على (ادخلوا) والدخول سريع الانقضاء فيتبعه الأكل أى يعقبه فكان لابد من التعبير بالفاء.

وجاءت الثانية بالواو لأنها معطوفة على (اسكنوا) والمعنى أقيموا فيها وذلك ممتد ومجامع للأكل فذكر الواو التى تفيد الجمع أى اجمعوا بين السكون والأكل.

وهذه من الآيات التى تشتبه على القارئ وتلبس عليه وتكون سبباً للخطأ والخلط بين الآيتين، ولو علم السر والمعنى والسياق لعلم أن الدخول يعطف عليه بالفاء لأنه ينقضى سريعاً، والسكون ممتد فيجمع مع ما بعده فيعطف عليه بالواو التى تفيد الجمع.

وقد قدم الله عز وجل قوله ﴿ ... وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ... (٥٨) ﴾ [البقرة] فى آية البقرة على قوله ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ وأخر فى آية الأعراف.

وبين أبو حيان السر فى ذلك بقوله:

"ناسب تقديم الأمر بدخول الباب سجداً مع تركيب (ادخلوا هذه القرية) لأنه فعل دال على الخضوع والذلة و(حطة) قول، والفعل أقوى فى إظهار الخضوع من القول فناسب أن يذكر مع مبدأ الشيء وهو الدخول، ولأن قبله ادخلوا، فناسب الأمر بدخول القرية الأمر بدخول بابها فصار باب القرية كأنه بدل من القرية أعيد معه العامل بخلاف السكن"(1).

وقال الله عز وجل فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ... (٤٩) ﴾.

وفى الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ... (١٤١) ﴾. بغير واو فى الآيتين.

وقال فى سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ... (٦) ﴾.

---

(1) البحر المحيط 4/409.

بالواو، والسر فى ذلك أن ما فى البقرة والأعراف من كلام الله تعالى: فلم يرد تعداد المحن عليهم.

والذى فى إبراهيم على لسان موسى، فعدد المحن، وكان مأموراً بذلك فى الآية قبلها فى قوله تعالى: ﴿ ... وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ... ⑤ ﴾ [إبراهيم][1].

وتجد نفسك أمام إعجاز باهر لا يدانيه كلام البشر حين تقرأ فى سورة هود. فى قصة هود: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨ ﴾ [هود].

وفى قصة شعيب: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ٩٤ ﴾ [هود].

بالواو فيهما فى قوله ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾.

وفى قصة صالح ولوط عبر القرآن بالفاء فقال فى قصة صالح: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ٦٦ ﴾ [هود].

وفى قصة لوط: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ٨٢ ﴾ [هود].

والحكمة فى التعبير بالواو فى الآيتين الأولى والثانية وبالفاء فى الآيتين بعدهما هى:

أنه فى قصة هود وشعيب توعدهم بالعذاب وخوفهم منه فقال فى قصة هود: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧ ﴾ [هود].

وقال فى قصة شعيب: ﴿ ... سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ... ٩٣ ﴾ [هود].

---

(1) انظر أسرار التكرار فى القرآن ص 27.

فالتخويف قارنه التسويف، ولم يقع العذاب إلا متأخراً عن وقت الوعيد فناسب التعبير بالواو لأنها لا تفيد التعقيب.

أما في قصة صالح ولوط فقد وقع العذاب عقيب الوعيد، فإن في قصة صالح: ﴿ ... تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود].

كما عبر بالفاء في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف].

قال أبو حيان:

"فالعطف بالفاء يدل على تقدير قرب زمان الهلاك من زمان طلب الإتيان بالوعد، ولقرب ذلك كان العطف بالفاء"(1).

وفي قصة لوط: ﴿ ... إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود] فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب.

---

(1) البحر المحيط 4/ 231، 232.

النحو والقرآن

لا يتأتى الكشف عن أسرار القرآن الكريم دون دراية بعلم النحو يقول الزركشي :

"وعلى الناظر فى كتاب الله الكاشف عن أسراره النظر فى هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها، ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلة أو مفعولة، أو فى مبادئ الكلام أو فى جواب إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع أو قلة أو كثرة إلى غير ذلك"(1) .

ويجب على المعرب لكتاب الله، والذى يتناوله من الناحية النحوية، أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً كان أو مركباً قبل الإعراب فإن الإعراب فرع المعنى، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور إذا قلنا بأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

ومما يتوقف إعرابه على المعنى ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿ ... **وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً** ... ﴿١٢﴾ ﴾ [النساء] .

يتوقف توجيه نصب (كلالة) على فهم المراد منها هل هو اسم للميت أو للورثة أو للمال .

فإن كان اسماً للميت فهى منصوبة على الحال، وكان تامة لا خبر لها بمعنى وجد .

ويجوز أن تكون ناقصة والكلالة خبرها، وجاز أن يخبر عن النكرة لأنها قد وصفت بقوله(يورث) والأول أوجه .

وإن كانت اسماً للورثة فهى منصوبة على الحال من ضمير (يورث) لكن على حذف مضاف، أى ذا كلالة، وعلى هذا فكان ناقصة و(يورث) خبر. ويجوز أن تكون تامة فيورث صفة وإن كانت اسماً للمال فهى مفعول ثان ليورث، كما تقول : ورثت زيداً مالاً، وقيل تمييز، وليس بشىء .

---

(1) البرهان 1 / 302 .

ومن جعل الكلالة الوراثة فهى نعت لمصدر محذوف، أى وراثة كلالة، أى يورث بالوراثة التى يقال لها الكلالة.

هذا كله على قراءة (يورث) بفتح الراء.

فأما على قراءة (يورث) بكسرها مخففة أو مشددة فالكلالة هى الوراثة أو المال.

ومن ذلك (تقاة) فى قوله تعالى: ﴿ ... إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ... (٢٨) ﴾ [آل عمران]. فى نصبها ثلاثة أوجه مبنية على تفسيرها.

فإذا كانت بمعنى الاتقاء فهى مصدر كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ﴾ [نوح].

وإن كانت بمعنى المفعول أى أمراً يجب اتقاؤه، فهى نصب على المفعول به، وإن كانت جمعاً كرام ورماة، فهى نصب على الحال.

ومن ذلك إعراب (أحوى) من قوله (غثاء أحوى) وفيه قولان متضادان:

أحدهما: أنه الأسود من الجفاف واليبس.

والثانى: أنه الأسود من شدة الخضرة.

فعلى الأول هو صفة لغثاء، وعلى الثانى هو حال من المرعى وأخر لتناسب الفواصل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) ﴾ [المرسلات].

فإنه قيل: الكفات الأوعية، ومفردها (كفت) والأحياء والأموات كناية عما نبت ومالا ينبت.

فعلى الأول (أحياء وأمواتا) صفة لكفاتا، كأنه قيل أوعية حية وميتة، أو حالان. وعلى الثانى هما مفعولان لمحذوف ودل عليه (كفاتا) أى تجمع أحياء وأمواتاً.

إعجاز القرآن والنظريات فيه

كانت مسائل إعجاز القرآن مفردة فى الكتب حتى جاء القرن الثالث فظهرت كتب أفردت الكلام فى إعجاز القرآن.

فكتب الجاحظ كتابا سماه نظم القرآن، وكذلك كتب السجستانى كتاب نظم القرآن، وفى القرن الرابع كتب أبو بكر الباقلانى فى إعجاز القرآن.

وألف أبو الحسن على بن عيسى الرُمَّانى كتابه "النكت فى إعجاز القرآن".

وألف الخَطَّابى كتابه "بيان إعجاز القرآن".

وألف الباقلانى كتابه "إعجاز القرآن".

ثم ألف عبد القاهر كتابه "دلائل الإعجاز وكتب أيضا الرسالة الشافية فى إعجاز القرآن".

ثم ألف الفخر الرازى كتابه نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز.

ومعرفة إعجاز القرآن علم عظيم القدر، لأن نبوة نبينا محمد ﷺ، معجزتها القرآن، وهذا أمر يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز، قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ... ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة] فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يكن هناك أمر بتمكينه سماعه، ولا تكون حجة إلا وهى معجزة.

وقال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ... ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] فأخبر الله تعالى أن الكتاب آية من آياته وأنه كاف فى الدلالة، قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء.

وقد اختلف الناس فى وجوه إعجاز القرآن على أقوال:

أحدها: وهو قول النَظَّام أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم، لكن عاقهم أمر خارجى، فصار كسائر المعجزات.

وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبهم الله القدرة لما كان هناك فائدة في اجتماعهم. وأيضا لو كانت الصرفة هي المانعة من الإتيان بمثل القرآن لم كان معجزاً.

الثاني: أن وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص، لا مطلق التأليف واختاره ابن الزملكاني في البرهان.

الثالث: ما فيه من الأخبار عن الغيوب المستقبلة، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ ... (١٦)﴾ [الفتح] وقوله في أهل بدر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ... (٢٧)﴾ [الفتح].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ... (٥٥)﴾ [النور].

وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ [الروم] وغير ذلك كثير مما أخبر القرآن الكريم بأنه سيقع فوقع.

الرابع: ما تضمنه من أخبار عن قصص الأولين، وسائر المتقدمين.

الخامس: أخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا ... (١٢٢)﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... (٨)﴾ [المجادلة]، وقوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ ... (١٦)﴾ [الفتح] وغير ذلك.

السادس: وصححه ابن عطيه وقال إنه الذى عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح فى نفسه، أن التحدى إنما وقع بنظمه وصحة معانيه، وتوالى فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علما، وأحاط بالكلام كله علما، ففى ترتيب ألفاظ القرآن علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يقع منهم الجهل والنسيان والذهول.

وقيل غير ذلك من الوجوه، فقيل وجه الإعجاز الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من العيوب.

وقيل: خروجه عن جميع النظم المعتاد فى كلام العرب ومباينته لأساليب خطاباتهم.

وقيل: إن وجه الإعجاز شىء لا يمكن التعبير عنه.

وقيل: حكم الذوق والقبول عند النفس، فقد جمع القرآن بين الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تضاد ذلك، إلا أن القرآن قد جمع بينهما وقد صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظم التأليف مضمنا أصح المعانى من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته، ودعاء إلى طاعته.

وأهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده فإنه جمع ذلك كله.

وقد أردت أن يكون للنحو كلمة فى هذا المجال، وإن كان النحو لا ينفصل عن البلاغة، فالبلاغة وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام فى موضعه وهذا ما تقتضيه قواعد النحو.

فإذا أبدل مكان الحرف غيره تبدل المعنى، وكذلك إذا تقدم أو تأخر أو ثبت أو حذف، وكذلك جعل النحو لكل كلمة موضعها وبين إيحاءها إذا تقدمت أو تأخرت.

ولهذا قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ﴾ [الماعون] أنه الذى ينصرف ولا يدرى عن شفع أو وتر، فرد عليه الحسن بأنه لو كان كذلك لقال: "الذين هم فى صلاتهم" فلم يفرق أبو العالية بين (فى) و (عن) حتى تنبه له الحسن وقال: المراد به إخراجها عن وقتها.

وقد تناولت الإعجاز القرآني من خلال عرضى لبعض الأسرار والحكم التى تدرك بالحس النحوى.

النحو والإعجاز القرآني:

وإذا كان عبد القاهر قد جعل إعجاز القرآن من ناحية النظم فإننا نجده يحصر النظم فى وضع الكلام وفق قواعد النحو، يقول عبد القاهر: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها، وتعرف الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها، وذلك أنَّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه، فينظر فى الخبر إلى الوجود التى تراها فى قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفى الشرط والجزاء إلى الوجوه التى تراها فى قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، وفى الحال إلى الوجوه التى تراه فى قولك: جاءنى زيد مسرعا، وجاءنى يسرع، وجاءنى وهو مسرع، أو وهو يسرع، وجاءنى وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجئ به حيث ينبغى له، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منهما بخصوصيته فى ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه نحو أن يجئ بما لنفى الحال، وبـ (لا) إذا أراد نفى الاستقبال وبـ (إن) فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون، وبـ (إذا) فيما علم أنه كائن وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف بما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء)، وموضع (الفاء) من

موضع (ثم)، وموضع (أو) من موضع (أم)، وموضع (لكن) من موضع (بل)، ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت ترجع مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(1).

وقد شبه عبد القاهر الجرجاني الزهد في النحو بالصد عن كتاب الله وعن معرفة معانيه لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه وعلل ذلك بقوله: " إذا كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه"(2).

ولا يحتاج كلام عبد القاهر إلى تعليق، فلم يدع قولاً لقائل ولا تعقيباً لمعقب حيث جعل الإعجاز في النظم، وجعل النظم هو النحو، فالنتيجة أن الإعجاز في النحو. كما أنه جعل النحو هو المقياس الذي لا يعرف صحيح الكلام من سقيمه إلا به.

والإعجاز النحوي للقرآن الكريم محكوم به سلفا، حيث تناوله الفصحاء بالإكبار والإجلال، وتوافرت هناك دراسات كثيرة للنحاة والنابهين في فن النحو،

---

(1) دلائل الإعجاز ص64، 65.

(2) دلائل الإعجاز ص24.

ولم يدرك أحد من أعداء الإسلام مطعنا واحدا، ونردد هنا قول الله تعالى : ﴿ ... **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** (٨٢) ﴾ [النساء] .

وليست دراستنا هذه إحصائية ولكنها بعض من كل، وهى بعض ما من به الفتاح علينا .

إعجاز القرآن فى التقديم والتأخير

لقد بلغ القرآن الكريم الذروة فى هذا الباب، فكل ما قدمه لحكمة، وكل ما أخره لحكمة، وكل ذلك بميزان دقيق، ولو قدمت ما أخر أو أخرت ما قدم لبعدت عن المعنى المراد، وجاوزت حد البلاغة القرآنية التى لا تبارى ولا يشق لها غبار فى هذا الميدان ولا فى غيره من ميادين البلاغة.

وباب التقديم والتأخير لطيف المأخذ، بديع الحكمة، وقد قال عنه عبد القاهر: "هذا باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه، ويفضى بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك لسعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"(1).

وهناك طائفة من الآيات التى تتجلى فيها حكمة القرآن وبلاغته وأسراره فى التقديم والتأخير فيها:

سبب تقديم المفعول وتكراره فى "إياك نعبد وإياك نستعين" كرر الله عز وجل "إياك" وقدمه، ولم يقتصر على ذكره مرة كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين فى آيات كثيرة منها "ما ودعك ربك وما قلى" أى: ما قلاك، وكذلك الآيات التى بعدها معناها (فآواك – فهداك – فأغناك)، لأن فى التقديم فائدة، وهى قطع الاشتراك، ولو حذف لم يدل على التقديم، لأنك لو قلت: إياك نعبد ونستعين، لم يظهر أن التقدير: إياك نعبد وإياك نستعين أم: إياك نعبد ونستعينك فكرر(2).

ويرى سيبويه أنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم(3).

---

(1) دلائل الإعجاز ص83.

(2) ينظر: أسرار التكرار فى القرآن ص 20.

(3) انظر الكتاب 1/56.

وقال النحويون: إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس فى فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون من أوقعه، كمثل ما يعلم من حالهم فى حال الخارجى يخرج فيعيث ويفسد ويكثر منه الأذى، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء، فإذا قتل وأراد مريد الإخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجى فيقول: قتل الخارجى زيد، ولا يقول قتل زيد الخارجى، لأنه يعلم أنه ليس للناس فى أن يعلموا أن القائل زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذى هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجى المفسد، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه.

ثم قالوا: فإذا كان رجل ليس له بأس ولا يقدر فيه أن يقتل فقتل رجلا، وأراد المخبر أن يخبر بذلك فإنه يقدم ذكر القاتل فيقول: قتل زيد رجلا[1].

ومن ذلك يعلم أن التقديم فى الآية الكريمة مقصود لذاته، والمعنى عليه فالمراد: لا نعبد إلا إياك. ولو جاء التعبير نعبدك ونستعينك ما أفاد المعنى المراد، والقرآن يؤكد على إخلاص العبادة لله وعدم الاستعانة بغيره. والنبى ﷺ يقول: "وإذا استعنت فاستعن بالله".

السر فى التصرف فى الجار والمجرور بالتقديم والتأخير:

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿... وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ... ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة].
قدم سبحانه وتعالى (به) فى هذه السورة، وأخرها فى المائدة والأنعام والنحل:
﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

والسر فى ذلك: أن تقديم الباء هو الأصل لأن الفعل يتعدى بها، فهى تجرى مجرى الهمزة والتشديد فى التعدى، فكانت كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول وهو أول ورودها أولى بما هو الأصل، ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله، وتقديم ما هو الغرض أولى.

---

(1) ينظر دلائل الإعجاز ص84، 85.

ولهذا أجاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذى الحال، والظرف على العامل فيه إذا كان ذلك موائما للغرض فى الإخبار.

وجاء الجار والمجرور مؤخراً فى قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ فى سورة القصص، وجاء مقدماً فى سورة (يس) فى قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس].

اسمه حزبيل من آل فرعون، وهو النجار، وقيل شمعون، وقيل حبيب، وهو هو فى السورتين.

وقوله ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون من أقصى المدينة صفة لرجل.

والثاني: أن يكون صلة لجاء.

والثالث: أن يكون صلة ليسعى.

والأظهر فى سورة القصص أن يكون وصفا، وفى سورة يس أن يكون صلة.

السر فى تقديمه وتأخيره:

والسر فى تقديم الجار والمجرور فى سورة يس ما جاء فى التفسير من أنه كان يعبد الله فى جبل، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً، فالمراد الإخبار عن سعيه من هذا المكان البعيد فهو موضع الاهتمام فالآية تعطى صورة عن مجيئه من بعد قاطعا مسافة طويلة.

أما فى سورة القصص فالآية جاءت للتحدث عن الرجل، فالمقام هو ذكر ما صادفه موسى فذكرت الآية الخامسة عشر أنه وجد رجلين "فوجد فيها رجلين يقتتلان".

ثم جاءت هذه الآية لتقول: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس]. فلو قدم الجار والمجرور هنا أو أخر هناك لخرج الكلام على غير هذا الوجه الذى يوحى به تقديم الجار والمجرور وتأخيره.

فذلك ضرب من الإعجاز الذى تفرد به القرآن الكريم .

وكذلك أخر الجار والمجرور فى قوله تعالى فى سورة النحل: ﴿ ... وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ... ⑭ ﴾ [النحل] على القياس، فإن الفلك المفعول الأول، ومواخر المفعول الثانى، وفيه ظرف، وحقه التأخير. وأما فى سورة فاطر فقد قدم الجار والمجرور ﴿ ... وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ... ⑫ ﴾ [فاطر] وذلك ليوافق ما قبله وهو قوله تعالى: ﴿ ... وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ... ⑫ ﴾ [فاطر] فوافق تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل ليأتى الكلام على نسق واحد مما جعل الكلام فى غاية من الانسجام والتوافق وذلك هو سر المغايرة بين الآيتين فى التقديم والتأخير.

ومن تقديم الجار والمجرور فى القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ ... فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ⑰ ﴾ [هود] فى قراءة من قرأ بفتح (يعقوب) .

وإذا جعل يعقوب فى موضع جر كان فيه تقديم الجار والمجرور والفصل به بين حرف العطف والمعطوف .

وهذا الفصل أصعب من الفصل بالظرف بين حرف العطف والمعطوف فى قول الشاعر:

يوما تراها كمثل أردية العَصْـ ـب ويوما أديمهـا نَغْلا

أراد: تراها يوماً مثل أردية العصب، وأديمها يوما آخر نغلا، ففصل بالظرف بين حرف العطف والمعطوف به على المنصوب من قبله وهو (ها) من (تراها) .

وإنما كانت الآية أصعب مأخذا من قبل أن حرف العطف منها، الذى هو الواو، ناب عن الجار، الذى هو الباء، فى قوله (بإسحاق) . وأقوى أحوال حرف العطف أن يكون فى قوة العامل قبله، وأن يلى من العمل ما كان الأول يليه، والجار لا يجوز فصله من مجروره، وهو فى الآية قد فصل بين الواو ويعقوب بقوله(ومن وراء إسحاق) .

والأحسن فى (يعقوب) فيمن فتح أن يكون فى موضع نصب بفعل مضمر دل عليه قوله ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ أى وآتيناها يعقوب، فإذا كان كذلك لم يكن فيه فصل بين الجار والمجرور[1] .

ومن تقديم الظرف فى القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ ... فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... (٩٧) ﴾ [الأنبياء].

قدم الله عز وجل(إذا) وهى منصوبة بشاخصة، وقد تقدم الظرف المتعلق بأحد جزأى تفسير الضمير وهو شاخصة، والظرف مما يتسع الأمر فيه ولا تضيق مساحة التعذر له بأن تعلقه بمحذوف يدل عليه شاخصة، أو شاخصة أبصار الذين كفروا، كما تقول فى أشياء كثيرة[2] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) ﴾ [الطارق].

التقدير: يرجعه يوم تبلى السرائر. ولا يجوز أن تعلق يوم بقوله لقادر لئلا يصغر المعنى، لأن الله تعالى قادر يوم تبلى السرائر وغيره، فى كل وقت وعلى كل حال على رجع البشر وغيرهم[3] .

ومن تقديم المفعول: قراءة ابن عامر:

"وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم" بفتح الأولاد وضم الشركاء.

يقول ابن جنّى: "وهذا فى النثر وحال السعة صعب جدا، لاسيما والمفصول به مفعول لا ظرف"[4] .

وقد مثلها سيبويه بقول الحارث بن نهيك:

ليُبك يزيدٌ ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

---

(1) ينظر الخصائص 2/395، 397.
(2) ينظر الخصائص 2/398.
(3) ينظر الخصائص 2/402.
(4) السابق 2/407.

فقال: هو مثل (ليبك يزيد) قراءة بعضهم: "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم" رفع الشركاء على مثل ما رفع عليه ضارع[1] والمعنى أن (زين قتل) بالبناء للمفعول ورفع قتل، فيها معنى زين قتل بالبناء للفاعل ونصب قتل، فقد قال عن البيت.

كما قال ليبك يزيد، كان فيه معنى ليبك يزيد، كأنه قال: ليبكه ضارع[2].

تقديم الحال:

ومنه قوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [القمر]، وفى هذه الآية الكريمة رد على الجِرْمِيّ، حيث ذهب إلى منع تقديم الحال على الفعل وإن كان منصرفا.

وقد قالت العرب: شتى تئوب الحلبة، فشتى حال، وقد تقدمت على عاملها وهو تئوب لأنه فعل متصرف.

وقال الشاعر:

سريعاً يهون الصعب عند أولى النهى　　　إذا برجاء صـــادق قابلوا البأسا

فسريعا: حال، وقد تقدمت على عاملها وهو يهون، وقيل إن (خشعا) حال من الضمير المجرور فى عنهم، من قوله: فتول عنهم، وقيل: هو مفعول بيدع أى قوما خُشَّعا، أو فريقا خشعا[3].

قال الطبرى: واختلف القراء فى قراءة قوله: خاشعا أبصارهم، فقرأ ذلك عامة أهل المدينة وبعض المكيين والكوفيين (خشعا) بضم الخاء وتشديد الشين جامع خاشع، وقراءة عامة قراء الكوفة وبعض البصريين (خاشعا) أبصارهم بالألف على التوحيد اعتبارا بقراءة عبد الله وذلك أن فى قراءة عبد الله (خاشعة أبصارهم)،

---

(1) الكتاب 1/290.

(2) الكتاب 1/288.

(3) ينظر البحر المحيط 8/175.

وألحقوه وهو بلفظ الاسم فى التوحيد إذ كان صفة بحكم فعل ويفعل فى التوحيد إذا تقدم الأسماء[1].

قال الزجاج: "ولك فى أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد نحو خاشعا أبصارهم، ولك التوحيد والتأنيث لتأنيث الجماعة خاشعة أبصارهم، ولك الجمع نحو خشعا أبصارهم تقول: مررت بشباب حسن أوجههم، وحسان أوجههم، وحسنة أوجههم. قال الشاعر:

وشباب حسن أوجههم   من إياد بن نزار بن مَعَدّ"[2]

وحمل الزمخشرى (خشعا أبصارهم) على لغة أكلونى البراغيث فقال: (وخشعا) على يخشعن أبصارهم، وهى لغة من يقول: "أكلونى البراغيث وهم طيئ"[3].

التصرف فى الجمل بالتقديم والتأخير:

ذهب أبو الحسن فى قول الله سبحانه: ﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥**﴾ [الناس] إلى أنه أراد: من شر الوسواس الخناس من الجنة والناس (الذى يوسوس فى صدور الناس).

ومنه قول الله عز أسمه:

﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ㉘**﴾ [النمل] أى اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون. ثم تول عنهم.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ... ③**﴾ [المجادلة]: أن تقديره والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة ثم يعودون لما قالوا.

---

(1) جامع البيان 27/53.

(2) ينظر معانى القرآن وإعرابه للزجاج 5/86.

(3) الكشاف 4/36.

وقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ [الواقعة] تقديره والله أعلم: فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم. وإنه لقسم عظيم لو تعلمون.

التقديم والتأخير فى العطف بالواو:

المشهور الذى عليه المحققون من العلماء أن الواو للجمع المطلق وليست مرتبة، قال سيبويه:

"وإنما جئت بالواو لتضم الآخر إلى الأول، وتجمعهما، وليس فيه دليل على أن أحدهما قبل الآخر".

وقال المبرد: "فمنها الواو: ومعناها: إشراك الثانى فيما دخل فيه الأول، وليس فيها دليل على أيهما كان أولا نحو قولك: "جاءنى زيد وعمرو" و مررت بالكوفة والبصرة" فجائز أن تكون بالبصرة أولا كما قال الله عز وجل: ﴿... وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران] والسجود بعد الركوع".

وقد جرى المبرد على ظاهر الآية فالعطف فيها بالواو، والواو لا ترتب فلا يسأل لم قدم السجود على الركوع.

هذا ما قرره علماء النحو المحققون.

بيد أننا إذا نظرنا فى تناول القرآن الكريم للعطف بالواو وجدناه لا يقدم إلا لحكمة ولا يؤخر إلا لحكمة.

فالآية الكريم التى استدل بها المبرد على أن الواو لا تفيد الترتيب اشتملت على حكمة عالية فى تقديم السجود على الركوع.

فهناك وجهان لتقديم السجود على الركوع فى الآية:

أولهما: أن السجود لما كان الهيئة التى هى أقرب ما يكون العبد فيها من ربه قدم وأن كان متأخراً فى الفعل، فيكون التقديم بالشرف.

وثانيهما: أنه لم يرد الركوع وحده دون سائر أجزاء الصلاة ولكنه عبر بالركوع عن الصلاة كلها، كما تقول: ركعت ركعتين إنما تريد الصلاة لا الركوع، وعبر بالسجود عن الصلاة كلها، وأراد صلاتها فى بيتها، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها مع قومها، فصارت الآية متضمنة لصلاتين، صلاتها وحدها وعبر عنها بالسجود لأن السجود افضل حالات العبد، وكذلك صلاة المرأة فى بيتها أفضل لها ثم صلاتها فى المسجد، وعبر عنها بالركوع لأنه فى الفضل دون السجود، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها فى بيتها.

ومن الحكمة فى التقدير والتأخير فى العطف بالواو ما جاء فى القرآن الكريم من عطف اللهو على اللعب بتقديم اللعب فى الأكثر، وذلك لأن اللعب زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان اللهو وهو زمان الشباب.

وقد قدم اللهو على اللعب فى موضعين فى سورتى الأعراف والعنكبوت فجاء فى سورة الأعراف ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... (٥١) ﴾ فقدم اللهو على اللعب لأن ذلك يوم القيامة ويحكى حالهم فى الدنيا فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى.

وجاء فى سورة العنكبوت ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ... (٦٤) ﴾ [العنكبوت] قدم اللهو على اللعب وذلك لأن المراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وأن الدار الآخرة هى الحياة التى لا نهاية لها، فبدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا، أى مهما طال فهو منقض لا محالة وهو قصير بالنسبة للحياة الآخرة(1).

السر فى التصرف فى الفعل بالتقديم والتأخير:

قال تعالى: ﴿ ... فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ... (٢٨٤) ﴾ [البقرة]. جاء بتقديم (يغفر) على (يعذب) فى البقرة وغيرها من السور. إلا فى المائدة فإنه

(1) انظر البرهان 1/121.

جاء بتقديم (يعذب) على (يغفر) ﴿ ... يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة] .

لأن آية المائدة نزلت فى حق السارق والسارقة، وعذابهما يقع فى الدنيا، فقدم لفظ العذاب، وفى غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه تعالى، وترغيبا للعباد فى المسارعة إلى موجبات المغفرة .

وقال الزمخشرى : فان قلت : لم قدم التعذيب على المغفرة؟ قلت : لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة[1] .

من أسرار الحذف والإثبات وما يتوهم زيادته:

ويجب تجنب لفظ الزائد فى كتاب الله تعالى أو التكرار، ولا يجوز إطلاقه إلا بتأويل كقولهم : الباء زائدة ونحوه، ومرادهم أن الكلام لا يختل بحذفها، لأنه لا فائدة فيه أصلا، فإن ذلك لا يحتمل من متكلم فضلا عن كلام الحكيم .

وقال ابن الخشاب فى المعتمد :

اختلف فى هذه المسألة، فذهب الأكثرون إلى جواز إطلاق الزائد فى القرآن نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم وهو كثير، لأن الزيادة بإزاء الحذف، هذا للاختصار والتخفيف وهذا للتوكيد والتوطئة، ومنهم من لا يرى الزيادة فى شيء من الكلام ويقول هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصها فلا أقضى عليها بالزيادة، ونقله عن ابن دَرَسْتَوَيه . فقال : والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل، لأنه عبث، فتعين أن إلينا به حاجة، لكن الحاجات إلى الأشياء قد تختلف بحسب المقاصد، فليست الحاجة إلى اللفظ الذى زيد عندها ولا زيادة كالحاجة إلى الألفاظ التى رأوها مزيدة وبه يرتفع الخلاف .

وكثير من القدماء يسمون الزائد صلة، وبعضهم يسميه مقحما، وسنقف أما بعض الآيات، التى يوحى ظاهرها بأن هناك زيادة، لنعرف السر وراء الإتيان بما

---

(1) الكشاف 1 / 612.

قد يتوهم أنه جاء زائدا لنعرف أن ما توهموه كذلك جاء الحكمة بالغة تفرد بها القرآن الكريم.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ ... فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ... (٢٣) ﴾ [البقرة]. بذكر (من)، وفي غيرها "بسورة مثله".

وذلك لأن (من) تدل على التبعيض، ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأوله بعد سورة الفاتحة حسن دخول (من) ليعلم أن التحدى واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره، وغيرها من السور لو دخلها من لكان التحدى واقعا على بعض السور دون بعض[1].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ ... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ... (٤٩) ﴾ [البقرة]. وقال في الأعراف: ﴿ ... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ... (١٤١) ﴾ [الأعراف].

جاء (يذبحون) و(يقتّلون) بغير واو، وذلك على البدل من (يسومونكم) وجاءت في سورة إبراهيم "ويذبحون" بالواو.

والسر في ذلك: أن ما في البقرة والأعراف من كلام الحق سبحانه وتعالى، فلم يرد تعداد المحن عليهم.

وأما الذى في سورة إبراهيم فهو من كلام موسى عليه السلام، فعدد المحن عليهم، وكان مأموراً بذلك في قوله تعالى: ﴿ ... وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ... (٥) ﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ... (٥١) ﴾ وكذلك في مريم: ﴿ ... رَبِّي وَرَبُّكُمْ ... (٣٦) ﴾. وقال في سورة الزخرف: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ... (٦٤) ﴾.

ذكر الضمير (هو) في سورة الزخرف ولم يذكر في سورتى آل عمران ومريم. والسر في ذلك:

---

(1) ينظر أسرار التكرار للكرماني 24.

أن (هو) يذكر فى مثل هذا المواضع إعلاماً أن المبتدأ مقصور على هذا الخبر وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره.

والذى فى آل عمران وقع بعد عشر آيات من قصتها، وليس كذلك ما فى الزخرف فإنه ابتداء كلام منه فحسن التأكيد بقوله(هو) ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور فى الآية، وهو إثبات الربوبية، ونفى الأبوة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً [1].

وقد ذكر سيبويه فى فائدة ضمير الفصل أنه يذكر "إعلاما بأنه قد فصل الاسم، وأنه فيما ينتظر المحدث ويتوقعه منه مما لابد له من أن يذكره للمحدث، لأنك إذا ابتدأ الاسم فإنما تبتدئه لما بعده، فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكور بعد المبتدأ لابد منه، وإلا فسد الكلام ولم يسغ ذلك، فكأنه ذكر(هو) ليستدل المحدث أن ما بعد الاسم ما يخرجه مما وجب عليه وأن ما بعد الاسم ليس منه، هذا تفسير الخليل رحمه الله" [2].

الباء المقول بزيادتها:

جرى النحاة والمفسرون على القول بزيادة بعض الحروف ومنها الباء فى قوله تعالى: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم] وكذلك الباء الواقعة فى خبر ليس.

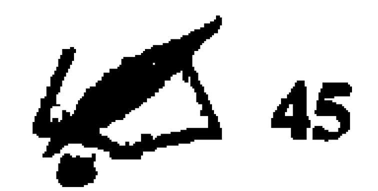
والسبب فى قولهم بزيادتها أنها تعمل فى لفظ الخبر فقط، ويبقى الحكم الإعرابى على أصله منصوباً بفتحة مقدرة على آخر الخبر منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

والنحاة لا يعنون بلفظ الزيادة أنها تأتى عبثا أو لغوا، وإنما هى زائدة عندهم للتوكيد.

---

(1) انظر أسرار التكرار ص49.

(2) الكتاب 2/389.



ومما يدل على أنهم لا يعنون بالزيادة العبث أو اللغو أنهم ينصون على أن الزيادة قد تكون واجبة وقد تكون غالبة وقد تكون ضرورة.

يقول ابن هشام وهو يتحدث عن الباء المؤكدة: "وهى الزائدة"، وزيادتها فى ستة مواضع:

أحدهما: الفاعل وزيادتها فيه واجبة وغالبة وضرورة، فالواجبة فى نحو أحسن بزيد فى قول الجمهور أن الأصل أحسن زيد، بمعنى صار ذا حسن، ثم غيرت صيغة الخبر إلى الطلب، وزيدت الباء إصلاحاً للفظ"(1).

فانظر إلى قولهم بوجوب الزيادة فإن فيه دليلا على أن الحذف غير جائز. ومن هنا فإننى أرى أن الهجوم على النحاة فى قولهم بالزيادة ووقوعها فى القرآن الكريم اختلاق قضية بدون مبرر فالخلاف لفظى وشكلى وهو مجرد مصطلح لا يليق بالقرآن الكريم، ونحن نبرئ النحاة من أن يكون قصدهم بالزيادة العبث أو اللغو وإن كان المعروف لدى علماء البلاغة أن الزيادة فى الموضع الذى يتطلبها تكون عين البلاغة، فالإطناب فى مقام الإطناب هو البلاغة، والإيجاز حينئذ ينافى البلاغة.

فإذا كانوا يقولون فى بعض المواطن أن هذه زيادة واجبة كان ذلك دليلا على أنهم لا يقصدون أنها من باب اللغو.

وأكثر مواقع(ما) النافية فى القرآن الكريم جاءت الباء معها داخلة فى الخبر، والصحيح أن الباء تدخل فى خبر (ما) عند الحجازيين وعند تميم على السواء.

ومن أمثلة ذلك:

﴿ ... مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة].

﴿ ... إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ... ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر].

﴿ ... مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

---

(1) مغنى اللبيب 1/ 99.

﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الصافات] .

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم] .

﴿ ... مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الأعراف] .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النحل] .

﴿ ... فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [النحل] .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الذاريات] .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] .

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الصافات] .

﴿ ... وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة] .

﴿ ... وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] .

﴿ ... وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام] .

وقد استقصيتها فى القرآن الكريم فوجدت الباء قد دخلت فى خبر (ما) فى القرآن الكريم فى إحدى وثمانين آية وهذا يمثل ظاهرة أسلوبية لا يهون معها القول بأن الباء حرف زائد . وهل يكفى القول بأن الباء زيدت لمجرد تأكيد النفى .

والناظر فى الآيات الكريمة التى دخلت الباء فيها فى خبر (ما) يجد أن المقام فيها مقام جحد وإنكار .

فنحن وإن كنا ننزه النحاة عن سوء القصد أو الوقوع فى الخطأ إلا أننا كنا نود منهم بما أوتوا من عقليات نابهة وفكر رشيد يشهد له ما سطروه من علم يعجز المحدثون عن مجاراته وقد يقفون أمام مجرد فهمه، كنا نود منهم وضع المصطلحات التى تليق بهذه الأشياء التى سموها زائدة .

فكانوا يقولون مثلا باء الجحود كما قالوا لام الجحود.

ولم تتخلف الباء تقريباً إلا فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ ... (٢) ﴾ [المجادلة]، وقوله تعالى: ﴿ ... مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف].

وبالنظر فى خبر ليس يطالعنا البيان القرآنى بظاهرة تهدينا إلى وجوب التفرقة بين الجمل الخبرية منها والجمل الاستفهامية.

فحيث يجئ النفى بليس فى الجعل الخبرية فى مقام الجحد والإنكار يقترن الخبر بالباء كما فى الآيات الآتية:

﴿ ... وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ... (٢٦٧) ﴾ [البقرة].

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ [آل عمران].

﴿ ... قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ... (١١٦) ﴾ [المائدة].

﴿ ... قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) ﴾ [الأنعام].

﴿ ... فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [الأنعام].

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾ [الحجر].

﴿ ... كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ... (١٢٢) ﴾ [الأنعام].

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ... (٣٢) ﴾ [الأحقاف].

﴿ ... وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... (١٠) ﴾ [المجادلة].

ولا شك أن الجحد والإنكار ظاهر فى الآيات الكريمة السابقة مما يحتاج معه إلى الباء التى تؤكد هذا المعنى.

أما أسلوب النفى إذا جاء خالياً من هذا المعنى كأن يكون نفياً غير مصحوب بيقين وذلك حين يكون قائل الجملة الخبرية غير مستيقن مما ينفيه، بل يجرى لسانه بهذا النفى وفى نفسه من الأمر شيء يمنع من التقرير والجحد كالذى فى آية الرعد : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد] .

أو يكون المقام فى حاجة إلى التثبت قبل نفى الخبر كآية النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ... ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء] .

وقد تتخلف الباء فى خبر ليس إذا استعيض عنها بمؤكد آخر كأن تعقب الجملة الخبرية بما ينقلها من الأخبار عن غيب لم يقع إلى ماض قد تقرر وكآية هود ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود] .

وهذه الآيات الثلاث هى التى لم يقترن بها خبر ليس بالباء فى القرآن الكريم كله ، الأولى أن نقول أن الباء حذفت فى هذه الآيات الثلاث، ولا نقول أنها زيدت فى كل هذه الآيات وجاءت على الأصل فى الآيات الثلاث .

هذا عن الجمل الخبرية المنفية بليس .

وأما الجمل الاستفهامية فيطرد مجئ الخبر فيها مقترنا بالباء لا يتخلف .

وما من آية فيها يمكن أن تحتمل نفياً أو تأكيداً لنفى، بل ينتقض النفى فيها جميعاً ويصير إلى إثبات مؤكد وتقرير ملزم، فإما أن يستغنى عن الجواب أو يجاب عنه بلفظ (بلى) الذى يختص بايجاب ما يستفهم عنه منفيا . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ... أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنعام] .

﴿ ... أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

﴿ ... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] .

﴿ ... أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود] .

﴿ ... أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ ... ﴿٨١﴾ ﴾ [يس].

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ ... أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ ... أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحقاف].

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة].

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين].

فهذه الباء لاشك كان لها أثرها فى خروج الاستفهام إلى التقرير. وهذا هو سر الباء التى قالوا إنها زائدة لمجرد التوكيد، بالرغم من أن معناها فى الآيات ظاهر وهو إخراج الاستفهام من معناه الأصلى إلى التقرير.

فقد خرج النحاة علينا بشيء سموه الزيادة، وقد يكون لهم عذرهم فى غير كلام الله سبحانه وتعالى فقد أصلوا لقواعد النحو والصرف ثم ظهرت أشياء لم تستوعبها اصطلاحاتهم فاضطروا إلى أن يقولوا زائدة، وأن الناظر فيما سموه زائداً لا يستطيع أن يفسر إلا بشيء واحد هو أنه زاد عن اصطلاحتهم التى وضعوها فى علم النحو، ولذلك وجدناهم يقولون: زائد لأجل كذا، فما دام قد جاء لمعنى فلماذا نسميه زائداً؟ فإذا ما جاوز الأمر كلام العرب إلى كلام الله عز وجل كان فى إطلاق الزيادة على كلامه إساءة أدب. ومن العجيب أن بعض الأشياء التى نصوا على زيادتها، إذا ما حاولت أن تستغنى عنها، اختل المعنى المراد واحتجت إلى كلام طويل ليؤدى مؤداها.

وسأضرب بعض الأمثلة على بعض ما وسمه النحاة بالزيادة وهو فى حقيقة الأمر جاء لمعنى مهم لا يتحقق إلا به.

يقول القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة] "أى نزه الله تعالى عن السوء. والباء زائدة أى سبح اسم ربك"(1).

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 17/234.

ولم يشأ أبو حيان أن يقول بزيادة الباء هنا، فالتمس لها، على استحياء، وجها وهو أنها للتعدية وأن سبح يتعدى بنفسه وبه قال أبو حيان "ويظهر أن سبح يتعدى تارة بنفسه، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]، و﴿... وَيُسَبِّحُونَهُ ... ⑳⑥﴾ [الأعراف] وتارة بحرف الجر كقوله ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ⑤②﴾ [الحاقة][1].

ولكن بقي على النحاة شيء وهو أنهم وهم أمام كلام الله المعجز بلفظه ومعناه ونظمه لم ينظروا في سر التعبير تارة بالباء وتارة بغيرها وهل هما سواء؟ وهل إذا وضعت الباء في الآيات التي خلت منها كان لها نفس المؤدى؟

لقد انبرى لذلك قلة من النحويين آنسوا في أنفسهم دقة في الفهم وعمقاً في الفكر فوجدنا منهم من عالج مثل تلك الأمور بتعقل وحكمة.

ففي الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها يقول السهيلي.

"إن قيل: ما فائدة دخول الباء في ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ⑤②﴾ [الحاقة] ولماذا لم تدخل في ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]؟

فالجواب: أن التسبيح ينقسم قسمين: أحدهما: أنه يراد به التنزيه والذكر دون معنى يقتدى به. والثاني: أن يراد به الصلاة، وهي ذكر مع عمل، ومنه سميت سبحة وهو في القرآن، قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ①⑦﴾ [الروم] وأشار إلى الصلوات الخمس. وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ①④③﴾ [الصافات] "أي المصلين". فإذا ثبت ذلك وأردت التسبيح المجرد، فلا معنى للباء، لأنه لايتعدى بحرف جر، لاتقول: (سبحت بالله) وإذا أردت المتضمن لمعنى الصلاة دخلت الباء تنبيها على ذلك المعنى، فتقول: (سبح باسم ربك) كما تقول: صل باسم ربك، أي مفتتحا باسمه. وكذلك أيضا دخلت اللام في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ... ①﴾ [الحشر] لأنه أراد التسبيح الذي هو السجود والطاعة[2].

---

(1) البحر المحيط 8/216.

(2) نتائج الفكر ص46.

وانظر إلى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت].

قال النحاة إن (أن) فى قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ زائدة وإنما حكموا بزيادتها لأن (لما) ظرف زمان، ومعناها وجود الشيء لوجود غيره، وظروف الزمان غير المتمكنة لاتضاف إلى المفرد، و(أن) المفتوحة تجعل الفعل بعدها فى تأويل المفرد، فلم تبق (لما) مضافة إلى الجمل، فلذلك حكموا بزيادتها(1).

هذا ما قضت به صناعتهم لكن الناظر إلى معنى الآيات يجد أن وجود (أن) فى الكلام جاء لمعنى لا يتحقق بدونها ولو رفعت كنت تقول بدلا منها ولما جاءت رسلنا لوطا فاجأته المساءة بمجرد مجيئهم من غير إمهال. فالناظر فى قصة إبراهيم وقصة لوط عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام يجد أن هناك فرقاً، ففى قصة إبراهيم عليه السلام حين جاءه رسل الله من الملائكة لم يكن يعلم أمرهم وظن أنهم بشر نزلوا فى ضيافته، فأكرم نزلهم وفعل معهم ما يفعل مع الضيفان، وقدم إليهم عجلاً حنيذا ولم يعرف حالهم إلا بعد مهلة من الوقت.

أما فى قصة لوط عليه السلام فالمقام يختلف حيث كان لوط يخشى من قومه على من حل به من ضيف فبمجرد رؤيته الملائكة سيء بهم.

ومن هنا كان التعبير بـ(أن) فى قصة لوط دون قصة إبراهيم.

وقد أشار الزمخشرى إلى معنى (أن) فى هذا الموطن فقال: "و(أن) صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر، في وقتين متجاورين، لا فاصل

---

(1) انظر البرهان فى علوم القرآن 3/76.

بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه"[1].

وقال الفخر الرازي عن الحكمة من وجود (أن) في قصة لوط وعدم وجودها في قصة إبراهيم عليه السلام: "حكمة بالغة وهي أن الواقع في وقت المجيء هنا قول الملائكة (إنا مهلكو) وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا، ثم قالوا: إنا مهلكو، وأيضا فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الإخبار بالإهلاك حسن، فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه ألا يفاجئ به، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين يشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير"[2].

أفبعد الوقوف على ما يحمله هذا الحرف من معان يحق لنا أن نحكم عليه الحرف بالزيادة؟

ماذا لو أباح النحاة إضافة لما إلى المفرد استدلالا بهذه الآية بل إن منهم من ذهب إلى ما هو أبعد من هذا، فقد جعل الأخفش من زيادة أن قوله تعالى: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ** ... ⦗١٢⦘ ﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿ ... **وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ... ⦗٢٤٦⦘ ﴾ [البقرة]، والصحيح أنها مصدرية لأنها عملت النصب في المضارع[3].

وقد عد النحاة حذف اللام من جواب (لو) قليلا، قال الرضي: "وجواب (لو) إما فعل مجزوم بلم نحو لو ضربتني لم أضربك، أو ماض في أوله لام مفتوحة. وتحذف هذه اللام قليلاً"[4].

وإذا كان الأمر كمازعم هؤلاء النحاة لكان حذف اللام في قوله تعالى: ﴿ **لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا** ... ⦗٧٠⦘ ﴾ [الواقعة] من القليل.

---

(1) الكشاف 3/205.
(2) مفاتيح الغيب 24/387.
(3) انظر البرهان 3/76.
(4) شرح الكافية 2/391.

وكيف يقال ذلك والآية تقدمتها آية مشابهة لها وذكر فيها اللام الداخلة على الجواب وهو قوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ... (٦٥) ﴾ [الواقعة] وهذا يدل بما لا يدع مجالا للشك على أن حذف اللام مقصود لغرض، ولذلك فقد أنصف الزمخشرى حين وجه الحذف بأن اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة، وأدخلت فى آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد يفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب[1].

وقد أحسن الفخر الرازى صنعا حينما أراد أن ينبه إلى أمر خفى على الكثير من النحاة وهو أن هناك فرقاً بين جواب (لو) إذا كان شرطها ماضيا وجوابها إذا كان شرطها مضارعا فقد قال: "وفيه لطيفة أخرى نحوية وهى أن فى القرآن إسقاط اللام عن جزاء (لو) حيث كانت لو داخلة على مستقبل لفظا، وأما إذا كان ما دخل عليه (لو) ماضيا، وكان الجزاء موجباً فلا، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا ... (١٣) ﴾ [السجدة]، و﴿ ... لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ... (٢١) ﴾ [إبراهيم]. وذلك لأن (لو) إذا دخلت على فعل مستقبل كما فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَاءُ ﴾ فقد أخرجت عن حيزها لفظا، لأن (لو) للماضى، فإذا خرج الشرط عن حيزه جاز فى الجزاء الإخراج عن حيزه لفظا وإسقاط اللام عنه"[2].

وكان للنحاة بعض القواعد التى اصطدمت أحيانا مع بعض النصوص القرآنية والنصوص الواردة عن العرب.

فقد قال النحاة إن النكرة إذا أعيدت بلفظها كانت النكرة الثانية غير الأولى ولذلك قالوا فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح]: إن مع كل عسر يسرين من حيث إن العسر معروف بالعهد واليسر مُنَكَّر فالأول غير الثانى، واستدلوا بقول ابن عباس: يقول الله تعالى: (خلقت عسرا واحدا بين يسرين،

---

(1) انظر الكشاف 4/57.

(2) مفاتيح الغيب 29/308.

فلن يغلب عسر يسرين) وبما روى عن رسول الله ﷺ : "لن يغلب عسر يسرين"[1].

لكن هذه القاعدة لا تستقيم لهم، وذلك لأنك إذا قلت : إن مع الفارس سيفا، إن مع الفارس سيفا، يلزم على قاعدتهم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية.

ويلزم على قاعدتهم أن يكون إله الثانية غير إله الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ... ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف].

فهذه القاعدة ليست عامة فى كل شيء فكان الأولى بهم أن يقولوا : إن النكرة إذا أعيدت بلفظها جاز أن تكون الثانية غير الأولى وجاز أن تكون عين الأولى. لئلا تتعارض قاعدتهم مع هذه الآية الكريمة ومع بعض نصوص العرب.

وأما ما استدلوا به من كلام ابن عباس وحديث النبى ﷺ بذلك لا يلزم أن يكون استنتاجا من تنكير اليسر، بل هو إخبار بذلك مجرد عن هذا الأمر.

ومن قواعد النحاة التى تحتاج إلى نظر ما ذهب إليه أكثرهم من أن الأصل فى (هل) أنها بمعنى (قد).

وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان].

قال ابن عباس وقتادة : "هى هنا بمعنى (قد)"[2] قيل : لأن الأصل : أهل فكأن الهمزة حذفت واجتزئ بها فى الاستفهام.

وقد اعتمدوا على قول سيبويه : "هل : إنما تكون بمنزلة قد، ولكنهم تركوا الألف، إذا كانت هى لا تقع إلا فى الاستفهام"[3].

---

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن 20/108، ومفاتيح الغيب 32/497، والبحر المحيط 8/488.

(2) البحر المحيط 8/393.

(3) الكتاب 1/459.

لكن المتأمل يجد هذه الدعوى لا تستقيم لهم، فهب أن ابن عباس وقتادة قالا إنها فى الآية بمعنى (قد) فهل يفيد هذا أن أصلها (قد) فكان الأولى أن يكون مجيئها بمعنى قد خروجاً عن الأصل، لا أنه هو الأصل، ويشهد على ذلك استعمال العرب لها فإن مجيئها بمعنى قد قليل بالنسبة إلى ما جاءت فيه بمعنى الاستفهام، بل إن الناظر فى القرآن الكريم يجد أنها استعملت فيه بمعنى الاستفهام، فى آيات كثيرة، وقد يخرج الاستفهام فى بعضها إلى معنى الإنكار أو التوبيخ أو التقرير إلى غير ذلك لكنها تدور حول معنى الاستفهام ومن هذه الآيات: ﴿ ... **فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ...** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ ... **فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج]، ﴿ ... **وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]، ﴿ ... **فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ** ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق]، ﴿ ... **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ** ﴿٣﴾ ﴾ [الملك]، ﴿ **فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ** ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة].

إلى غير ذلك من الآيات. فلا يعقل أن يكون مجيئها فى آية بمعنى (قد) هو الأصل وتكون فى غيرها من سائر الآيات خارجة عن أصلها على أنه يمكن حملها فى هذه الآية على الاستفهام الذى لا يجاب إلا بنعم. وإذا كان سيبويه قد ذكر أنها تكون بمعنى (قد) فقد ذكر فى مواضع أخرى أنها للاستفهام، فقال فى باب عدة ما يكون عليه الكلم: "وهل هى للاستفهام"[1].

وسماها حرف استفهام فقال: "واعلم أنه إذا اجتمع بعد حروف الاستفهام نحو هل وكيف ومن اسم وفعل كان الفعل بأن يلى حرف الاستفهام أولى"[2].

ووجدنا من علماء النحو النابهين من نص على أنها للاستفهام، فقد ذكر أبو حيان أنها تأتى استفهاما وتأتى بمعنى (قد)، فقال: "هل: حرف استفهام، فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بقد لأن قد من خواص الفعل، فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتى للاستفهام المحض..."[3].

---

(1) الكتاب 2/ 305.

(2) الكتاب 1/ 459.

(3) البحر المحيط 8/ 393.

وقد ذكر الفراء أنها تكون جحدا وتكون خبراً فقال في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ ... ① ﴾ [الإنسان]، "وهل: تكون جحدا وتكون خبرا فهذا من الخبر لأنك قد تقول: فهل وعظتك؟ فهل أعطيتك؟ تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته والجحد أن تقول: وهل يقدر واحد على مثل هذا؟"[1].

وما ذكره الفراء هو من المعاني التي نبه العلماء على أن الاستفهام يخرج إليها. وقد أحسن ابن جني حينما وضح أمر هل بما يقبله العقل ويشهد له استعمال العرب فقال:

فأما (هل) فقد أخرجت عن بابها إلى معنى (قد) نحو قول الله سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ... ① ﴾ [الإنسان] قالوا معناه: قد أتى عليه ذلك "وقد يمكن عندي أن تكون مَبقاة في هذا الموضع على بابها من الاستفهام، فكأنه قال - والله أعلم - هل أتى على الإنسان هذا؟ فلابد في جوابه من (نعم) ملفوظا بها أو مقدرة"[2].

ما الموصولة عند النحاة واستعمال القرآن لها:

يقول النحاة: إن (ما) اسم موصول بمعنى الذى، وليست كذلك، فإنها وإن وافقت (الذى) فى أكثر أحكامها فإنها مخالفة لها فى المعنى، وفى بعض الأحكام.

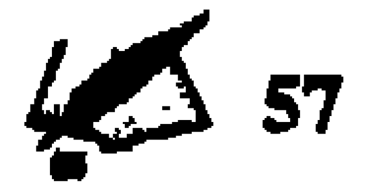
فهى توافق (الذى) فى أن كل ما وصلت به يجوز أن يكون صلة (الذى)، وتخالفه فى أنها لا تكون نعتاً لما قبلها، ولا منعوتة لأن صلتها تغنيها عن النعت. وأيضا فلو نعتت بنعت زائد على الصلة لارتفع إبهامها، وفى ارتفاع الإبهام منها جملة بطلان حقيقتها وإخراجها عن أصل موضعها.

وتفارق (الذى) أيضا فى امتناعها من التثنية والجمع، وذلك لفرط إبهامها.

---

(1) معانى القرآن للفراء 3/213.

(2) الخصائص 2/462.



ولا يجوز أن توجد (ما) إلا واقعة على جنس عام ولا تخلو من الإبهام أبدا وقد نص النحويون على أنها تكون لما لا يعقل.

وذهب بعض أئمة النحو إلى أنها لغير العقلاء، والأكثرون على أنها للعقلاء وغيرهم.

وروى كونها لغير العقلاء عن النبى ﷺ : ما أجهلك بلغة قومك (ما) لما لا يعقل".

وقد تمسك من ذهب إلى أنها تعم العاقل وغيره برواية أخرى لهذا الحديث وهى أن هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ شق ذلك على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا وأتوا ابن الزِبَعْرى وأخبروه، فقال: لو حضرته لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له، قال: كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى، واليهود تعبد عزيراً، أفهما من حصب جهنم؟ فكانت الإجابة عليهم بالآيات التالية:

فقالوا: هذا ابن الزبعرى فى جاهليته قد فهم أن (ما) تشمل جميع من عبد ووافقته على ذلك قريش[1].

وذكر الفخر الرازى أن سؤال ابن الزِبَعْري ساقط من عدة وجوه، وذكر منها أنه لم يقل: ومن تعبدون، بل قال: ما تعبدون، وكلمة (ما) لا تتناول العقلاء[2].

والأكثرون من النحاة على أنها للعقلاء وغيرهم، وأكثر ما يأتى لما لا يعقل يقول ابن مالك: "(من) يختص بمن يعقل، و(ما) صالحة للصنفين، لكن أولاهما به مالا يعقل، والمبهم أمره"[3].

ونسب هذا الرأى إلى سيبويه[4]، وقد نقل عن الخليل أن (من) تكون بمعنى إنسان، (ما) تكون بمعنى شيء[5].

---

(1) انظر: حاشية الصبان 1/152.
(2) الجامع لأحكام القرآن 11/343.
(3) انظر: البحر المحيط 8/522.
(4) انظر: شرح الكافية الشافية 1/276.
(5) الكتاب 2/105.

السر فى إيثار القرآن الكريم(ما) على (من) فى بعض المواطن.

تبين لنا مما سبق أن الأكثرين من النحاة على أن (ما) تأتى للعقلاء وغيرهم وهى بما لا يعقل والمبهم أمره أولى، لكننا وجدنا القرآن الكريم استعملها مع العاقل وآثرها على (من) فى بعض المواطن مثل قوله تعالى: ﴿ ... مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]، ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الشمس]، ﴿ ... فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ... ﴿٣﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكافرون].

فلماذا لم يعبر القرآن الكريم بـ(من)؟ وهل إذا استعملت (من) مكان (ما) كانت تؤدى نفس المعنى المراد؟

عند إمعان النظر فى هذه الآيات الكريمة نجد أن (ما) فيها مقصود إليها لما تفيده من الإبهام وإرادة الجنس العام. ولا تؤدى (من) نفس المؤدى أما قوله تعالى: ﴿ ... مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]، فهذا كلام ورد فى معرض التوبيخ والتبكيت لإبليس على امتناعه من السجود، ولم يستحق هذا التوبيخ والتبكيت من حيث كان السجود لما يعقل، ولكن لعلة أخرى، وهى المعصية والتكبر على مالم يخلقه، إذ لا ينبغى التكبر لمخلوق على مخلوق مثله، إنما التكبر للخالق وحده فكأن الله سبحانه وتعالى يقول له: لم عصيتنى وتكبرت على مالم تخلقه وخلقته أنا، فهذا موضع (ما) لأن معناها أبلغ، ولفظها أبلغ وأعم، فلو قال: ما منعك أن تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهاماً مجرداً من توبيخ وتبكيت، ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل أو لعله موجودة فى ذاته وعينه، وليس الأمر كذلك، فلا معنى لتعيينه بالذكر، وترك الإبهام فى اللفظ(1).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الشمس].

---

(1) انظر الكشاف للزمخشرى 3 / 383، ونتائج الفكر للسهيلى ص182.

فقد أوثرت (ما) على (من) لإرادة معنى الوصفية لأن القسم تعظيم للمقسم به، واستحقاقه للتعظيم من حيث بنى وأظهر هذا الخلق العظيم الذى هو السماء، فكأنه قيل: والسماء والقادر والعظيم الذى بناها فاستحق التعظيم وثبتت له القدرة كائنا ما كان هذا المعظم[1]. وأخطأ بعضهم فخرجها على أنها مصدرية وأن التقدير: وبنيانها.

يقول السهيلى بعد شرحه السر فى مجئ (ما) دون (من) فى الآية الكريمة:

فإذا تأملت ما ذكرناه استبانت لك جهالة القائلين من النحويين- أن (ما) مع الفعل بتأويل المصدر، وأن المعنى والسماء وبنيانها، فلا لصناعة النحو وفقوا ولا لفهم التأويل رزقوا، وأكثروا الحرز، وأخطأوا المفصل، وما طبقوا"[2].

وأما ما فى قوله تعالى: ﴿ ... فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ... ۝ ﴾ [النساء].

فإن الملحوظ فيها الصفات غير المفهومة من الصلة كالبكارة والثيوبة لأنه لما كان الملحوظ فيها الصفات وهى من غير العالم كان كأنها مستعملة فى غير العالم.

وقال الزمخشرى فى تفسيرها ما نصه: "وقيل (ما) ذهابا إلى الصفة ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء. ومنه قوله تعالى: ﴿ ... أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... ۝ ﴾ [النساء][3].

فلما كانت النساء فى هذا الأمر محل الاختيار يختار الرجال منهن ما يتصفن بصفات مخصوصة، ولما كانت الإماء تملك كسائر المتاع كان تعبير القرآن الكريم فى قمة البلاغة حيث عبر بـ(ما) فى الموضعين.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ ﴾ [الكافرون] فقيل فى توجيهه:

---

(1) انظر المصدرين السابقين نفس الصفحتين.

(2) التطبيق: إصابة السيف المفصل، وانظر نتائج الفكر ص183.

(3) الكشاف 1/496.

إن المراد منه الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق، وقيل إن (ما) مصدرية فى الجملتين كأنه قال: لا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتى.

وقيل إنه من باب المقابلة لقوله (ما تعبدون) والمقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ فى الإفراد وذلك لاتساق الكلام[1].

وقد أحسن السهيلى صنعا حين وضع يده على سر التعبير بـ(ما) وبين أن (ما) فى الآية على بابها لم تخرج عنه.

فقال: "وأما قوله عز وجل: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون] فـ(ما) على بابها، لأنها واقعة على معبوده عليه الصلاة والسلام على الإطلاق، لأن امتناعهم من عبادة الله تعالى ليس لذاته، بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به فقوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون] أى أنكم لا تعبدون معبودى[2].

وما فطن إليه السهيلى معنى دقيق لطيف، يسلم به من يقف عليه، بل إنه يوقفنا على سر من أسرار القرآن فى هذه الاستعمالات ثم يضيف السهيلى وجها آخر وهو أنهم كانوا يشتهون مخالفة الرسول ﷺ فهم لا يعبدون معبوده كائنا ما كان– ويضيف قائلا: فعلى هذا لا يصح فى النظم البديع والمعنى النبيه الرفيع، إلا (ما) لإبهامها، ومطابقتها الغرض الذى تضمنته الآية[3].

فنحن أمام لون من ألوان الإعجاز القرآنى، فانظر كيف فعل بالمعنى استعمال (ما) هنا دون (من)، وكيف انطوى المعنى بسبب هذا الاستعمال على معنى دقيق، ما كان يؤدى بغير(ما).

الفهم النحوى للقرآن ترتب عليه أحكام شرعية:

وقد يبنى على الفهم النحوى خلاف يمس بعض الأمور العقدية.

---

(1) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى 32/ 719، 720. والبحر المحيط 4/ 522.

(2) نتائج الفكر ص183.

(3) نتائج الفكر ص183، 184.

فقد وقع خلاف بين أهل السنة والمعتزلة فى أفعال العباد أهى مخلوقة لله أو للعبد وقد جاء هذا الخلاف مترتبا على أنه يجوز فى (ما) أن تكون موصولة وأن تكون من مصدرية، يقول ابن الحاجب :

"فإذا قلت : (أعجبنى ما صنعت) فلا يخلو إما أن تقدر ضميرا يعود على (ما) وإما أن تقدر المفعول غير ذلك. فإن قدر الأول كانت موصولة، وإلا فهى مصدرية، فعلى الأول المعنى يكون الذى أعجبك هو ما تعلقت به الصناعة، كتاب أو حصير أو ما أشبه ذلك، وعلى الثانى يكون ما أعجبك نفس الصناعة لا المصنوع من حركاته المخصوصة بتلك الصناعة، لأن التقدير فى الأول : أعجبنى المصنوع وفى الثانى : أعجبتنى الصناعة، وهذا إنما يجئ مثله فى الأفعال المتعدية المحذوف مفعولها . ."[1] .

فقد احتج أهل السنة بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات] .

على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وقالوا : إن النحويين اتفقوا على أن لفظ (ما) مع ما بعده فى تقدير المصدر، فقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه وعملكم، وعلى هذا صار معنى الآية : والله خلقكم وخلق عملكم .

وأنكر ذلك المعتزلة ومنعوا أن تكون (ما) مصدرية .

وقد انبرى الزمخشرى للرد على أهل السنة بقوله :

"فإن قلت : فما أنكرت أن تكون (ما) مصدرية لا موصولة، ويكون المعنى : والله خلقكم وعملكم كما تقول المجبرة" ؟

قلت : أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب أن معنى الآية يأباه إباءً جليًّا، وينبو عنه نبوا ظاهر وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله . . .

---

(1) الإيضاح شرح المفصل 2/232 .

وشيء آخر وهو أن قوله ما تعبدون ترجمة عن قوله ما تنحتون و(ما) فى (ماتنحتون) موصولة لا مثال فيها، فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه من غير نظر فى علم البيان ولا تبصر لنظم القرآن"[1].

وقد رد عليه ابن المنير بقوله:

"يتعين حملها على المصدرية، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست بصورة، فلو كان كذلك لم يتفانوا فى تصويرها ولا اختصوا بعبادتهم حجرا دون حجر، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التى هى أثر عملهم، ففى الحقيقة أنهم عبدوا عملهم"[2].

وقد ذهب السهيلى إلى أن (ما) إذا وصلت بالفعل الذى لفظه عمل أو صنع أو فعل مضافا إلى فاعل غير الله سبحانه، فلا يصح وقوعها إلا على مصدر، وصحح بذلك رأى أهل السنة وأبطل رأى المعتزلة. قال السهيلى: "اعلم أن (ما) إذا كانت موصولة بالفعل الذى لفظه عمل أو صنع أو فعل، وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير البارى سبحانه وتعالى فلا يصح وقوعها إلا على مصدر، لإجماع العقلاء من الأنام فى الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام، لا تقول: عملت جبلا، ولا صنعت جملا، ولا حديداً، ولا حجراً ولا تراباً، ولا شجراً. فعلى هذا لا يصح فى تأويل قوله سبحانه: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات]، إلا قول أهل السنة: إن المعنى: والله خلقكم وأعمالكم ولا يصح قول المعتزلة"[3].

"وبعدما رد حجج المعتزلة قال معقبا":

وتأويلنا معدوم فى تأويلهم، لأن الآية وردت فى بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق، وإقامة الحجة على من يعبد مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون

---

(1) الكشاف 3/346– وانظر البحر المحيط 7/367.

(2) هامش الكشاف 3/346.

(3) نتائج الفكر ص189.

فقال: (أتعبدون ما تنحتون)، أى ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التى تعملون"[1].

(1) السابق ص190، 191 .

أسرار فى بعض الحروف

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ... اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا ... (٣٥) ﴾ [البقرة].

وقال فى سورة الأعراف: ﴿ ... اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا ... (١٩) ﴾ [الأعراف].

عطف بالواو فى سورة البقرة وبالفاء فى سورة الأعراف لاختلاف معنى (اسكن) فى السورتين.

فالذى فى البقرة من السكون الذى معناه الإقامة، وذلك يستدعى زمانا ممتداً فلم يصلح إلا بالواو، لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفروغ من الإقامة، لأن الفاء للتعقيب والتركيب.

والذى فى الأعراف من السكنى التى معناها: اتخاذ الموضع مسكنا، لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله: ﴿ ... اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا ... (١٨) ﴾ [الأعراف]، وخاطب آدم فقال: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... (١٩) ﴾ [الأعراف] أى اتخذاها لأنفسكم مسكنا، فكلا من حيث شئتما، فكانت الفاء أولى لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زمانا ممتدا، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبه[1].

وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا ... (٥٨) ﴾ [البقرة] بالفاء، لأن الدخول سريع الانقضاء، فيتبعه الأكل.

السر فى التعبير بعن فى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ... (١٠٤) ﴾ [التوبة].

---

(1) ينظر أسرار التكرار ص25، 26.

كلمة (من) وكلمة(عن) متقاربتان إلا أن (عن) تفيد البعد . فإذا قيل جلس عن يمين الأمير أفاد أنه جلس في ذلك الجانب ولكن مع ضرب من البعد، فيفيد هنا أن التائب يجب أن يعتقد فى نفسه أنه بعيد عن قبول الله توبته بسبب ذلك الذنب فيحصل له انكسار العبد الذى طرده مولاه وبعد عن حضرته، فلفظة (عن) كالتنبيه على أنه لابد من حصول هذا المعنى للتائب[1] . وقوله تعالى :

﴿ ... فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد] .

قال ابن مالك :

الأصل بخل عليك، لأن الذى يسأل فيبخل يحمل السائل ثقل الخيبة مضافا إلى ثقل الحاجة، ففى بخل معنى ثقل، فكان حقيقياً بأن يشاركه فى التعدية بعلى، فإن عدى بعن كان معناها معنى على .

وبالنظر فى الآية الكريمة تجد المعنى الذى أشار إليه ابن مالك والذى يستلزم التعدية بعلى غير موجود فيها فإنه لا يوجد هنا شخصان بل شخص واحد، فقد حجز الباخل عن نفسه الخير[2] .

السر فى التعبير بفى، فى قوله تعالى:

﴿ ... فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ... ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم] .

رد يتعدى بـ (إلى) كقوله تعالى : ﴿ ... إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ... ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]، لكن إذا تحققت هذا فالمعنى أنهم إذا ردوا أيديهم إلى أفواههم فقد أدخلوها فيها[3] .

وقال السمين الحلبى :

أى فرد الكفار أيديهم فى أفواههم من الغيظ و(فى) على بابها من الظرفية، أو فردوا أيديهم على أفواههم ضحكا واستهزاء، وفى بمعنى على، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقوا به من قولهم إنا كفرنا فهى بمعنى إلى .

(1) ينظر البحر المحيط 5/96.

(2) ينظر شرح التسهيل 3/159 .

(3) ينظر رصف المبانى 388 .

والحق أن التعبير القرآنى يتسع لهذا كله ويشمله والسر فى ذلك هو استعمال (فى) وهى صالحة لأن تأتى لكل هذه المعانى.

أسرار فى تصريفات بعض الكلمات وطريقة ورودها فى القرآن الكريم:

استيعاب القرآن الكريم لجميع جهات التسبيح:

استأثر الله عز وجل بجميع وجوه التسبيح واشتقاقاته كلها لنفسه فلم يدع لأحد شيئا.

وقد بدأ عز وجل بالمصدر فى سورة الإسراء لأنه الأصل فقال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ... ①﴾ [الإسراء].

ثم الماضى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ فى الحديد والحشر والصف، لأنه أسبق الزمانين.

ثم المضارع ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ فى الجمعة والتغابن.

ثم الأمر فى سورة الأعلى استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهى أربع: المصدر والماضى والمضارع والأمر وجاء بها على هذا الترتيب.

فهذا إعجاز يعجز عن مثله البشر، وتلك أعجوبة وبرهان.

من أسرار التكرار في القرآن الكريم

لقد كرر الله عز وجل "الرحمن الرحيم" عند من جعل بسم الله الرحمن الرحيم آية في سورة الفاتحة للتوكيد.

قال علي بن عيسى الرماني:

إنما كرر للتوكيد، وأنشد قول عبيد بن الأبرص:

هلا سألت جموع كنْـ ... دة يوم ولـــوا أين أينا

وقال قاسم بن حبيب: إنما كرر لأن المعنى وجب الحمد لله لأنه الرحمن الرحيم.

وقال الكرماني:

"إنما كرر لأن الرحمة هي الإنعام على المحتاج، وذكر في الآية الأولى المنعم ولم يذكر المنعم عليهم، فأعادها مع ذكرهم وقال (رب العالمين الرحمن) لهم جميعاً ينعم عليهم ويرزقهم، (الرحيم) بالمؤمنين خاصة يوم الدين، ينعم عليهم ويغفر لهم[1].

وكذلك كرر "الصراط" في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... (٧) ﴾ [الفاتحة] وذلك أن الصراط هو المكان المهيأ للسلوك، فذكر في الأول المكان ولم يذكر السالكين، فأعادها مع ذكرهم فقال: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... (٧) ﴾ [الفاتحة] أي الذي يسلكه النبيون والمؤمنون. ولهذا كرر أيضا في قوله: ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ... (٥٣) ﴾ [الشورى] صراط الله أي الذي هيأه للسالكين[2].

---

(1) ينظر أسرار التكرار للكرماني ص19، 20.

(2) أسرار التكرار ص20.

ومن أسرار التكرار:

تكرار العامل مع حرف العطف:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [البقرة] تكرر العامل هنا وهو الباء مع حرف العطف، وتكرار العامل مع حرف العطف لا يكون إلا للتأكيد. وهذه هي حكاية كلام المنافقين، وهم أكدوا كلامهم نفيا للريبة، وإبعادا للتهمة، فكانوا في ذلك كما قيل: كاد المريب أن يقول خذوني فنفى الله الإيمان عنهم بأوكد الألفاظ فقال: ﴿ ... وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [البقرة].

ويكثر ذلك مع النفي، وقد جاء في القرآن الكريم في موضعين:

في سورة النساء: ﴿ ... وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ... (٣٨) ﴾ [النساء].

وفي التوبة: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ... (٢٩) ﴾ [التوبة].

من أسرار التعريف والتنكير:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ ... فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... (٢٣٤) ﴾ [البقرة].

وقال في الآية الأخرى من هذه السورة التي جاءت متأخرة عنها: ﴿ ... فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ... (٢٤٠) ﴾ [البقرة].

السر في تعريف الأولى وتنكير الثانية:

المقرر في قاعدة النحاة أن النكرة إذا تكررت صارت معرفة. فتأتي النكرة أولا ثم تعرف كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ... كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ... (١٦) ﴾ [المزمل] لكن هنا خالف فجاء التعريف في الآية الأولى ثم جاء التنكير في الآية المتأخرة عنها.

والسر فى ذلك:

أن الآية المتأخرة فى التلاوة مقدمة على الآية الأولى فى النزول بإجماع المفسرين، وأجمعوا على أن الآية المتقدمة فى التلاوة ناسخة للآية المتأخرة، ولا شك أن المنسوخ سابق على الناسخ ضرورة.

فلو كان القرآن من عند النبى ﷺ لوضع الآية الثانية أولاً بمقتضى كونها منسوخة، وبمقتضى المتعارف عليه من لغة العرب حتى تتعرف النكرة بتكرارها حسب قواعد اللغة، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يتقدم الناسخ فى الترتيب باعتباره حكما يجب العمل به على الفور، فهو مقدم لذلك، وأن يتأخر المنسوخ باعتباره مستبعدا من ناحية العمل به، ومع ذلك يأخذ حكم المقدم باعتبار سبقه فى النزول، فيتعرف بالتكرار وإن لم يكن جاريا على الترتيب المتعارف فى اللغة ظاهراً، وليس هذا صنيع بشر مهما أوتى من أسباب البلاغة فما بالك بمن خاطبه ربه بقوله: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** (٤٨)﴾ [العنكبوت].

فتأمل فى هذا فإنه دليل على إعجاز القرآن.

من أسرار حروف التهجى
فى أول السور

من دلائل الإعجاز والتحدى فى القرآن الكريم افتتاح كثير من سوره ببعض حروف التهجى، بعضها على حرف واحد، وبعضها على حرفين، وبعضها على ثلاثة أحرف، أو أربعة، أو خمسة أحرف.

ومجموع هذه الحروف الواردة فى أوائل السور من غير تكرار يساوى أربعة عشر حرفاً، وهى تمثل نصف حروف الهجاء.

وإذا تأملت فى هذه الحروف وجدتها ناطقة بإعجاز القرآن ومفصحة عن أسرار عظمته تدل دلالة قاطعة على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر بل هو من كلام خالق القوى والقدر.

فهذه الحروف وهى: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون وقعت فى صدر تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم.

ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف.

وبيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها، وهى: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء.

ومن المجهورة نصفها، وهى: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والنون.

ومن الشديدة نصفها، وهى: الألف والكاف والطاء والقاف.

ومن الرخوة نصفها، وهى: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون.

ومن المطبقة نصفها، وهى: الصاد والطاء.

ومن المنفتحة نصفها وهى: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقلة: القاف والطاء.

وإذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التى ألغى الله ذكرها مكثورة أى مغلوبة فى الكثرة بالمذكورة منها.

فسبحان الذى وقعت فى كل شىء حكمته، ومعلوم أن معظم الشىء ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف القرآن الكريم واختصاراته.

ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً فى تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعها فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررتين وهى فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف[1].

وقال القاضى أبو بكر: "إنما جاءت على نصف حروف المعجم، كأنه قيل: من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقى ويركب عليه ألفاظاً معارضة للقرآن. وقد علم ذلك بعض أرباب الحقائق"[2].

وتأمل السورة التى اجتمعت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾ [ق] فإن السورة مبنية على الكلمات القافيّة أى التى ذكر فيها حرف القاف من القرآن والخلق وتكرار القول والقرب إلخ.

وكذلك سورة (ص) وما اشتملت عليه من الخصومات وأولها خصومة الكفار مع النبى ﷺ واختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار.

وهناك أسرار كثيرة فى هذه الحروف ولكننا لم نذكر إلا ما يتعلق بعلم النحو والصرف من حيث الحروف وأحوالها وصفاتها.

---

(1) ينظر الكشاف للزمخشرى 1/100-104.

(2) ينظر البرهان للزركشى 1/167.

ألفاظ القرآن

وفى وصف ألفاظ القرآن يقول الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المشهور بالراغب[1] وهو من أئمة السنة والبلاغة فى خطبة كتابه مفردات ألفاظ القرآن: ألفاظ القرآن لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها[2] اعتماد الفقهاء والحكماء فى أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء فى نظمهم ونثرهم، وما عداها أو ماعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمنتقاة منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة[3] والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة" أ.هـ[4].

وقد جاء من ألفاظ القرآن ما يحتاج إلى تأمل للوقوف على معناه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ... فَلا تَعْضُلُوهُنَّ ... (٢٣٢) ﴾ [البقرة]، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ... (١١) ﴾ [الحج]، ﴿ ... وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ... (٣٩) ﴾ [آل عمران]، ﴿ ... وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ ... (١١٠) ﴾ [المائدة]، وغيره مما ألف فيه علماؤنا كتب غريب القرآن. وتلك حكمة الله تعالى التى شاءت أن يكون هناك نظر وتأمل فى القرآن الكريم.

وجاء أيضاً فى كلام العرب كلمات تحتاج إلى تفسير كقولهم:

يملخ فى الباطل ملخا[5].

وينفض مذوريه[6]، وكما جاء أنه قيل: أيدالك[7] الرجل امرأته؟ قال: نعم؛ إذا كان مفلجاً.

---

(1) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل أديب كبير من العلماء من أهل أصبهان، من كتبه محاضرات الأدباء، ومفردات ألفاظ القرآن، توفى سنة 502هـ.

(2) على المفردات.

(3) الحثالة: القشارة.

(4) المزهر للسيوطى 1/ 201.

(5) فى اللسان: هو يملخ بالباطل ملخاً: أى يتلهى ويلج، ويملخ فى الباطل أى يمر سريعاً سهلا أو يتردد فيه ويكثر.

(6) ينفض مذوريه: المذروان: فرعا المنكبين، ويقال ذلك للرجل إذا جاء باغياً يتهدد.

(7) يدالك المرأة: أى يماطلها بمهرها إذا كان فقيراً.

من أسرار الاشتقاق فى القرآن

الاشتقاق ثابت فى كلام العرب بإجماع علماء اللغة.

قال ابن فارس فى فقه اللغة: باب القول على لغة العرب، هل لها قياس؟ وهل يشتق بعض الكلام من بعض؟

أجمع أهل اللغة، إلا من شذ منهم، أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، واسم الجن مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدلان أبداً على الستر، تقول العرب للدرع، جنة، وأجنه الليل، وهذا جنين، أى هو فى بطن أمه، وأن الإنس من الظهور، تقول: آنست الشيء: أبصرته. وعلى هذا سائر كلام العرب علم ذلك من علم وجهله من جهل.

وقال ابن دِحْية فى التنوير:

"الاشتقاق من أغرب كلام العرب، وهو ثابت عن الله تعالى بنقل العدول عن رسول الله ﷺ، لأنه أوتى جوامح الكلم، وهى جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة، فمن ذلك قوله فيما صح عنه: "يقول الله: أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمى"[1].

لفظ الجلالة بين الاشتقاق والجمود

المختار أن اللفظ اسم علم لله تعالى، وأنه ليس بمشتق البتة، وهو قول الخليل وسيبويه، وقول أكثر الأصوليين والفقهاء. ويدل عليه وجوه وحجج:

الحجة الأولى:

أنه لو كان لفظاً مشتقاً لكان معناه معنى كلياً لا يمنع نفس مفهومه من وقوع الشركة فيه، لأن اللفظ المشتق لا يفيد إلا أنه شيء ما مبهم حصل له ذلك المشتق

---

(1) انظر المزهر 1/345، 346.

منه، وهذا المفهوم لا يمنع من وقوع الشركة فيه بين كثيرين، ولو كان كذلك لما كان قولنا: (لا إله إلا الله) توحيداً حقاً مانعاً من وقوع الشركة فيه.

والحجة الثانية:

أنه لو كان مشتقاً لكان معناه يدل على الوصف ويستلزمه بحسب الأصل الذى اشتق منه.

لكننا نرى أن كل من أراد أن يذكر الله تعالى بالصفات المقدسة فإنه يذكر أولاً لفظة (الله) ثم يذكر عقيبه صفات المدائح، مثل أن يقول: الله العالم القادر الحكيم، ولا يعكسون هذا، لأن من أراد أن يذكر ذاتاً معينة ويذكر صفاتها فإنه يذكر اسمه أولاً ثم يذكر عقيب الاسم الصفات، مثل أن يقول: زيد الفقيه النحوى الأصولى.

ولا يتعارض ذلك مع قوله تعالى: ﴿ ... **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ① **اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ... ② ﴾ [إبراهيم].

لأن هاهنا قراءتين، منهم من قرأ (الله) بالرفع وحينئذ فلا تعارض، لأنه لما جعله مبتدأ فقد أخرجه عن جعله صفة لما قبله، وأما من قرأ بالجر فهو نظير لقولنا: هذه الدار ملك للفاضل العالم زيد، وليس المراد أنه جعل (زيد) صفة للعالم الفاضل، بل المعنى أنه لما قال: هذه الدار ملك للعالم الفاضل أزال الاشتباه بقوله(زيد).

والحجة الثالثة:

قال تعالى: ﴿ ... **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ٦٥ ﴾ [مريم]، وليس المراد من الاسم فى هذه الآية الصفة، وإلا لكذب قوله: ﴿ ... **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ٦٥ ﴾ [مريم] فوجب أن يكون المراد الاسم العلم، فكل من أثبت لله اسم علم قال: ليس ذاك إلا قولنا (الله).

وقيل: إنه مشتق وقد ذكر فيه وجوه منها:

1- أنه مشتق من ألهت إلى فلان أى سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تعرج إلا بمعرفته.

2- أنه مشتق من الوله وهو ذهاب العقل، فالواصلون إلى نوره تاهوا فى بحار الصمدية.

3- أنه مشتق من لاه إذا ارتفع، فهو سبحانه مرتفع عن مشابهة الممكنات.

4- أنه مشتق من لاه فى الشىء إذا تحير فيه ولم يهتد إليه، فالعبد إذا تفكر فيه تحير، لأن كل ما يتخيله الإنسان ويتصوره فهو بخلافه.

5- أنه من لاه يلوه إذا احتجب، فهو سبحانه محتجب بكنه صمديته عن العقول.

6- أنه مشتق من أله الفصيل إذا ولع بأمه، والمعنى أن العباد مولهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال.

7- أنه مشتق من أله الرجل يأله إذا فزع من أمر نزل به فألهه أى أجاره، والمجير لكل الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا تتجلى لنا الأسرار فيما يتسع له هذا اللفظ من معان.

أسرار العطف في أسماء الله

في كتاب الله عز وجل قلما نجد أسماءه الحسنى معطوفة بالواو نحو: (الرحمن الرحيم) و(العزيز الحكيم) و (الملك القدوس) إلى آخرها، لأنها أسماء له سبحانه والمسمى بها واحد، فلم تجر مجرى تعداد الصفات المتغيرة ولكن مجرى الأسماء المترادفة نحو: الأسد والليث، وغير ذلك.

فأما قوله سبحانه: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ... ۝٣﴾ [الحديد] فلأنها ألفاظ متضادة المعاني في أصل وصفها فكان دخول الواو صرفاً لوهم المخاطب- قبل التفكر والنظر- عن توهم المحال واجتماع الأضداد في المجال لأن الشيء لا يكون ظاهراً باطناً من وجه واحد وإنما يكون ذلك من وجهين مختلفين، فكان العطف ههنا أحسن من تركه لهذه الحكمة الظاهرة[1].

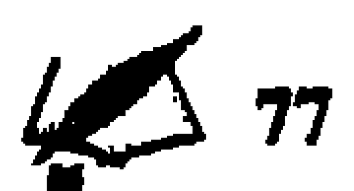
وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ... ۝٣﴾ [غافر].

فإنما حسن العطف بين الاسمين الأولين لكونهما من صفات الأفعال وفعله سبحانه في غيره لا في نفسه فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين، ولتنزلهما منزلة الجملتين لأنه سبحانه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ليرجوه ويؤملوه. ثم قال: (شديد العقاب) بغير واو؛ لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقدرة وهو معنى خارج عن صفات الفعل، فصار بمنزلة ما تقدم من قوله: (العزيز العليم)، وكذلك قوله: (ذي الطول) لأن لفظ ذي عبارة عن ذاته سبحانه[2].

---

(1) انظر نتائج الفكر ص239.

(2) نتائج الفكر ص239، 240.



القاعدة النحوية

وتفسير آية خلق الأرض

في سورة فصلت يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت].

وفى هذه الآية إعجاز وبرهان ساطع على أن هذا كلام الله تعالى وليس من كلام البشر، وهذا الإعجاز يدرك من جهة علم النحو فهاهنا لطيفة دقيقة لا يهتدى إليها إلا من كانت عنده دراسة بعلم النحو ودقائقه.

وهى أن قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ صلة الذى.

- وقوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿ لَتَكْفُرُونَ ﴾.

- وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ ﴾.

والآية على هذا النمط لابد فيها من إضمار فعل يصح به الكلام. حيث لا يجوز فى الكلام أن يقال:

(جاءنى الذى يكتب وجلس ويقرأ) لأنه لا يحال بين صلة الموصول وما عطف عليها بأجنبى من الصلة.

ومن هنا فالقاعدة النحوية قاضية بأن (وجعل فيها رواسى) معطوفة على فعل مضمر وهو (خلق الأرض) والتقدير ﴿ ... ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾.

وقد أفاد هذا التقدير الذى اقتضاه نظم الآية أن هذا كله من خلق الأرض وجعل الرواسى والبركة وتقدير الأوقاف واقع فى أربعة أيام.

فيسقط السؤال الذى يرد ههنا فيقال: إنه قد سبق ذكر يومين ثم أضيف إليها أربعة؟

فقد دل نظم الآية على دفع هذا السؤال، وكان نظم الآية بالغاً درجة الكمال فى الدقة وحسن السبك والإشارة اللطيفة وهذه معجزة وبرهان.

السر فى التعبير بـ(ثمَّ)

فى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** ... (٢٩) ﴾ [البقرة] أصل "ثم" أن تقتضى تراخياً زمانياً، ولا زمان فى آية البقرة، فقيل: إشارة إلى التراخى بين رتبتى خلق الأرض والسماء.

وقيل: لما كان بين خلق الأرض والسماء أعمال أخرى من جعل الجبال والبركة وتقدير الأقوات كما أشار إليه فى الآيات الأخرى عطف بثم إذ بين خلق الأرض والاستواء إلى السماء تراخ"(1).

السر فى عدم مجئ الباء بعد أعلم فى سورة الأنعام ومجيئها بعده فى غيرها من السور

قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ** ... (١١٧) ﴾ [الأنعام]. وقال تعالى فى سورن النحل: ﴿ ... **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ** ... (١٢٥) ﴾ [النحل].

جاءت الباء بعد أعلم فى سورة النحل وفى غيرها من السور وهذا هو الأصل لأن أفعل لا يعمل فى المفعول به، وإذا جاء ما بعده منصوباً فيكون نصبه بفعل محذوف.

---

(1) انظر الدر المصون 1/ 242.

فأفعل التفضيل لا يعمل عمل الفعل وهو بخلاف الصفة المشبهة، ويبين ذلك ابن يعيش بقوله:

"تقتضي هذه الصفات (أى أفعل التفضيل) ألا تعمل من حيث كانت أسماء، والأسماء لا تعمل فى أسماء مثلها، فأما الصفة المشبهة فإنها لما جرت على الموصوف ثم نقل الضمير إلى الأول فجعل عاملاً فى اللفظ، ثنّى وجمع وأنث على مقدار ما فيه من الضمير من نحو (مررت برجل حسن الوجه، وبرجلين حسنى الوجه... أشبهت اسم الفاعل فعملت عمله.... وأما أفعل هذه وبابها فإنه لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث فبعد من شبه اسم الفاعل وصار كالأسماء الجوامد التى لم تؤخذ من الأفعال...

فأما قوله:

أكر وأحمي للحقيقـــــة منهم وأضرب منا بالسيوف القَوانسا[1]

فقد نصب القوانس بأضرب، وحقيقته نَصْبٌ بإضمار فعل دل عليه أضرب، وتقديره ضربنا بالسيوف أو نضرب القوانس، ولا يجوز أن تتناوله أفعل هذه للتفضيل والمبالغة لما ذكرناه.

ومثله قوله تعالى: ﴿... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام] فحيث ههنا فى موضع نصب بأنه مفعول به لا ظرف، لأنه لا تخلو حيث هذه من أن تكون مجرورة أو منصوبة، فلا يجوز أن تكون مجرورة لأنه يلزم أن يكون أفعل مضافاً إليه، وأفعل إنما يضاف إلى ما هو بعض له وذلك هنا لا يجوز، وإذا لم يكن مجروراً كان منصوباً بفعل مضمر دل عليه أعلم كأنه قال: يعلم مكان رسالته، ولا يكون انتصابه على الظرف، لأن علمه تعالى لا يتفاوت بتفاوت الأمكنة"[2].

والسر فى مجئ الباء فى سورة نون وفى غيرها من السور أن هذا هو الأصل كما تقدم ولذا جاء عليه القرآن الكريم إلا فى آية الأنعام فقد جاءت بدون الباء

---

(1) البيت للعباس بن مِرْدَاس، والقَوْنَس هو أعلى البيضة، وقيل: هو ما بين أذنى الفرس.
(2) شرح المفصل لابن يعيش 6/105-107.

وجاء (من) منصوباً بفعل محذوف، ليوافق ما جاء في نفس السورة ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (١٢٤)﴾ [الأنعام].

والسر في مجئ لفظ المستقبل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ... (٧)﴾ [القلم] أن الباء لما حذفت التبس اللفظ بالإضافة، تعالى الله عن ذلك، فنبه بلفظ المستقبل على قطع الإضافة، لأن اكثر ما يستعمل لفظ أفعل من يستعمله مع الماضي نحو: أعلم من دب ودرج، وأحسن من قام وقعد، وأفضل من حج واعتمر، فلو جاءت الآية بلفظ الماضي لأشبهت ذلك ومن هنا "يتجلى إعجاز النص القرآني فحين تأتي الباء المانعة من الإضافة يأتي لفظ الماضي حيث لا حرج في استعماله.

وأما حين يلتبس ويشتبه بالإضافة نجد القرآن الكريم قد أتى بلفظ المستقبل الذي يمنع ذلك اللبس ويزيل ذلك الاشتباه وذلك من أسرار القرآن الكريم فلو قال: أعلم من ضل بدون الباء لكان المعنى: أعلم الضالين. فذلك إعجاز جلاه الفهم النحوي.

سر التعبير القرآني بالذي في موطن وبـ(ما) في موطن آخر والفرق بينها عند النحاة

يقول الله تعالى سورة البقرة :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ [البقرة] .

ويقول في نفس السورة :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) ﴾ [البقرة] .

ويقول سبحانه في سورة الرعد :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد] .

جاء التعبير القرآني في الآية الأولى بالذي، وفي الثانية والثالثة بـ(ما) .

والسر في ذلك :

أن العلم في الآية الأولى علم بالكمال وليس وراءه علم، لأن معناه : بعد الذي جاءك من العلم بالله وصفاته، وبأن الهدى هدى الله، ومعناه أن دين الله هو الإسلام، وأن القرآن كلام الله، فكان لفظ (الذي) أليق به من لفظ (ما) لأن (الذي) في التعريف أبلغ وفي الوصف أقعد، لأن (الذي) تعرفه صلته فلا يتنكر فقط، ويلزمه الألف واللام .

قال الرضى:

"أرادوا الوصف بها من بين سائر الأسماء الموصولة، لكونها على وزن الصفات، بخلاف (ما) و(من) فأدخلوا عليه اللام الزائدة تحسيناً للفظ حتى لا تكون موصوفة كمعرفة توصف بالنكرة.. وإنما ألزموها اللام الزائدة لأنها لو نزعت تارة وأدخلت أخرى لأوهم كونها للتعريف كما فى الرجل ورجل"(1).

فدخول الألف واللام عليه مزية ليست لـ(ما) ولا لـ(من) بالإضافة إلى ما ذكر من كونه أقعد فى التعريف.

وأيضاً تتقدمه أسماء الإشارة نحو قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ... ⓴ ﴾ [الملك]، ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ... ㉑ ﴾ [الملك]. فيكتنف الذى بيانان هما الإشارة قبله والصلة بعده مما يدل على أنه يستعمل فى المقام الذى يقتضى التعريف وليس لـ(ما) شىء من ذلك، لأنه يتعرف مرة ويتنكر أخرى ولا يقع وصفاً لأسماء الإشارة، وليس فيه ألف ولام.

ونجد سيبويه يذكر أنهما تأتيان معرفة وتأتيان نكرة فيقول:

"هذا باب ما يكون الاسم فيه بمنزلة الذى فى المعرفة إذا بنى على ما قبله، وبمنزلته فى الاحتياج إلى الحشو ويكون نكرة بمنزلة رجل، وذلك قولك: هذا من أعرف منطلقاً، وهذا من لا أعرف منطلقاً، أى هذا الذى قد علمت أنى لا أعرفه منطلقاً، وهذا ما عندى مهنياً، وأعرف ولا أعرف عندى حشو لهما يتمان به، فيصيران اسماً، كما كان الذى لا يتم إلا بحشوه.

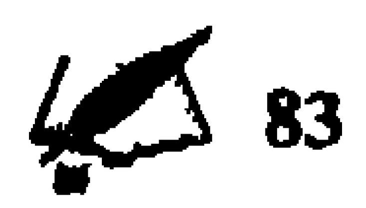
وقال الخليل رحمه الله: إن شئت جعلت (من) بمنزلة إنسان وجعلت (ما) بمنزلة شىء نكرتين، ويصير منطلق صفة لمن، ومهين صفة لما.

وزعم أن هذا البيت عنده مثل ذلك، وهو قول الأنصارى:

فكفى بنا فضلاً على من غيرنا ... حبُّ النبى محمد إيانا

---

(1) شرح الكافية 39/2.

ومثل ذلك قول الفرزدق:

إنا وإياك إذا حلت بأرحلنـــا كمن بواديه بعد المَحْل ممطور

وأما ﴿ ... هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ق] فرفعه على وجهين:

على شيء لدى عتيد، وعلى "هذا بعلى شيخ" أ.هـ[1].

والناظر فى كلام سيبويه يجده يجوز أن تكون كل من (ما) و(من) معرفة بمنزلة الذى، وأن تكون نكرة.

ومثل للأولى بقولك "هذا من أعرف منطلقاً وهذا من لا أعرف منطلقاً، وهذا ما عندى مهيناً" حيث جاء ما بعدهما حالاً وهذا دليل على تعريفهما.

ونجده يمثل للثانية بقوله "هذا من لا أعرف منطلق وهذا ما عندى مهين" ونقل جواز ذلك عن الخليل، ونحن نعلم أن استعمال سيبويه لكلمة زعم لا يدل على ضعف الرأى الذى يتحدث عنه، وهذه عادته فى الكتاب ثم إنه ذكر أن الخليل حمل على ذلك بيتين من الشعر الأول:

فكفى بنا فضلاً على من غيرنا حـــب النبـى محمـــد إيانا

فقد جعل غيرنا نعتاً لـ(من) باعتبارها نكرة مبهمة موصوفة وصفاً لازماً يكون لها كالصلة للموصول.

والثانى قول الفرزدق:

إنا وإياك إذا حلت بأرحلنـــا كمن بواديه بعد المحل ممطور

حيث جرى (ممطور) على (من) النكرة المبهمة نعتاً لها لازماً لزوم الصلة.

والفرزدق يمدح بالبيت يزيد بن عبد الملك ويقول: إذا حططت رحالي إليك كنت كرجل كان فى بواديه الممحلة المقفرة ثم أصابه الغيث فأخصب وأيسر، ويحمل سيبويه قول الله تعالى:

---

(1) ينظر الكتاب 2/ 105، 106.

﴿ ... هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ق] على وجهين:

أحدهما: على أن (ما) نكرة بمعنى شيء فتكون نكرة، والثاني: على "هذا بعلي شيخ" فتكون (ما) معرفة، فيكون من قبيل ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة، وقد فصل ذلك سيبويه بقوله:

"هذا باب ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة، وذلك قولك: هذا عبد الله منطلق، حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عمن يوثق به من العرب.

وزعم الخليل رحمه الله أن رفعه يكون على وجهين:

فوجه أنك حين قلت: هذا عبد الله أضمرت هذا أو هو كأنك قلت هذا منطلق أو هو منطلق.

والوجه الآخر: أن تجعلهما جميعاً خبراً لهذا، كقولك: هذا حلو حامض، لا تريد أن تنقض الحلاوة ولكنك تزعم أنه جمع الطعمين. وقال الله عز وجل: (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) وزعموا أنها في قراءة أبي عبد الله: "هذا بعلي شيخ" قال: سمعنا ممن يروى هذا الشعر من العرب يرفعه:

من يك ذا بت فهذا بتي مقيظ مصيف مشتي" أ.هـ

فقد رفع مقيظ وما بعده على الخبر أو على أنه بدل.

وللإمام عبد القاهر في سر التعبير بالذي كلام.

حيث عقد فصلاً في كتابه دلائل الإعجاز في (الذي) خصوصاً صدره بقوله:

"اعلم أن لك في (الذي) علماً كثيراً وأسراراً جمة وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر"[1].

ثم يقول في هذا الفصل:

---

(1) دلائل الإعجاز ص154.

"والقول المبين في ذلك أن يقال: إنه إنما اجتلب (الذى) حتى إذا كان قد عرف رجل بقصة وأمر جرى له فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع، ثم أريد القصد إليه ذكر (الدى) تفسير هذا أنك لا تصل (الذى) إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها وأمر قد عرفه له نحو أن ترى عنده رجلاً ينشده شعراً، فتقول له من غد: ما فعل الرجل الذى كان عندك بالأمس ينشدك الشعر؟"[1].

وفى الآية الثانية جاءت (ما) لأن المعنى من بعد ما جاءك من العلم بأن قبلة الله هى الكعبة، وذلك قليل من العلم بأن قبلة الله هى الكعبة، وذلك قليل من كثير من العلم.

وزيدت معه (من) التى لابتداء الغاية لأن تقديره من الوقت الذى جاءك فيه العلم بالقبلة لأن القبلة الأولى نسخت بهذه الآية و(ليس) الأولى مؤقتة بوقت.

وفى الآية الثالثة عبر بلفظ (ما) ولم يزد (من) لأن العلم هنا هو: الحكم العربى فكان بعضاً من الأول، ولم يزد فيها (من) لأنه غير مؤقت.

وقريب من معنى القبلة ما فى سورة آل عمران ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ... (٦١)** ﴾ [آل عمران].

فقد جاء بلفظ (ما) وزيدت فيه (من) وذلك لأن المعنى، والله أعلم، من بعد ما جاءك من العلم بأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم وهذا علم قليل من كثير.

وزيدت معه (من) وذلك لابتداء الغاية[2].

---

(1) المصدر السابق ص154، 155.

(2) انظر أسرار التكرار فى القرآن الكريم.

السر في تنكير بلد في موطن وتعريفه في موطن آخر

قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ... ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة].

وفي سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

جاء في الآية الأولى (بلداً) بالتنكير وفي الثانية البلد بالتعريف .

والسر في ذلك أن (هذا) في الآية الأولى إشارة إلى الوادي الذي دعا لأهله حين أسكنهم فيه، وهو قوله (بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) أو إلى المكان الذي صار بلداً ولذلك نكره فقال بلداً آمناً فيكون (بلداً) المفعول الثاني و(آمنا) صفته .

والمعنى : صير هذا الوادي أو هذا المكان بلداً آمناً وأما في الآية الثانية فقد كان الدعاء بعد أن صار المكان بلداً فقال : رب اجعل هذا البلد آمناً يكون (هذا البلد) المفعول الأول و(آمنا) المفعول الثاني .

هذا إذا كان الدعاء في وقتين .

وقيل : الآيتان سواء فتحتمل آية التنكير أن يكون قبلها معرفة محذوفة أي اجعل هذا البلد بلداً آمناً ويكون (بلداً) النكرة توطئة لما يجئ بعده، كما تقول (كان هذا اليوم يوماً حاراً) فتكون الإشارة إليه في الآيتين بعد كونه بلداً .

ويحتمل وجه آخر وهو أنه لا يكون هناك محذوف ولا يكون إذ ذاك بلد دعى له بذلك، ويكون المعرفة الذي جاء في قوله هذا البلـــد باعتبار ما يئول إليه "(1) .

---

(1) انظر البحر المحيط 1 / 383 .

السر في التعبير بضمير الفصل
في موطن دون آخر

قال الله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾.

وقال تعالى فى سورة مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾.

وقال عز وجل فى سورة الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)﴾.

جاءت الآيتان الأولى والثانية (ربى وربكم)، بدون (هو).

وأما الآية الثالثة فجاءت (هو ربى وربكم) والسر فى ذلك:

أن التعبير بـ (هو) أسلوب من أساليب القصر، قال عبد القاهر "أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه".

لقصدك المبالغة وذلك قولك: زيد هو الجواد وعمرو هو الشجاع، تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام فى صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال، فلو قلت: زيد هو الجواد وعمرو كان خلفاً من القول"(1).

" .... كقولك: جرير هو القائل:

وليس لسيفى فى العظام بقية

فأنت لو حاولت أن تشرك فى هذا الخبر غيره فتقول: جرير هو القائل هذا البيت وفلان؛ حاولت محالاً، لأنه قوله بعينه فلا يتصور أن يشرك جريراً فيه غيره"(2).

---

(1) دلائل الإعجاز ص138.

(2) دلائل الإعجاز ص138.

وإذا علمنا أن فى الإتيان بـ(هو) دلالة على القصر والتأكيد وأمعنا النظر فى الآيات الثلاث وجدنا الآية الكريمة الثالثة أولى بهذا التأكيد وبالمجئ على هذا الأسلوب من الآيتين الكريمتين السابقتين فآية آل عمران وقعت بعد تسع آيات تتكلم عن قصة مريم وعيسى من أول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ ... (٤٢) ﴾ لمريم وعيسى فلم تحتج إلى توكيد الربوبية واختصاصها بالله عز وجل.

وكذلك آية مريم سبقت بعشرين آية تتكلم عن القصة نفسها وذلك من أول قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ [مريم] فلم تحتج أيضاً إلى توكيد.

وليس كذلك ما فى الزخرف فإنه ابتداء كلام منه، فحسن التأكيد بقوله (هو) ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور فى الآية وهو إثبات الربوبية ونفى الأبوة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

السر في التعبير القرآني بالواو في موطن دون آخر وكذلك ذكر الجار والمجرور في موطن دون آخر

قال الله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾.

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) ﴾.

جاء في الآية الأولى (تبغونها عوجاً) بغير واو وفي الثانية (وتبغونها عوجاً) بدخول الواو على الفعل المضارع والسر في ذلك:

أن الفعل المضارع في الآية الأولى وقع في صدر الجملة الواقعة حالاً، وهو أظهر من إعرابها جملة مستأنفة لتتفق هذه الجملة مع الجملة الاستفهامية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) ﴾ [آل عمران].

قال الجمل:

(قوله: "تبغونها" يجوز أن يكون جملة مستأنفة أخبر عنهم بذلك، وأن تكون في محل نصب على الحال وهو أظهر من الأول لأن الجملة الاستفهامية السابقة جئ بعدها بجملة حالية أيضاً وهي قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ فتتفق الجملتان في انتصاب الحال عن كل منهما ثم إذا قلنا بأنها حال ففي صاحبها احتمالان:

أحدهما: أنه فاعل تصدون. والثاني أنه سبيل الله[1].

---

(1) حاشية الجمل 1/299.

وسبب صلاحيتها لأن تكون حالاً من كل منهما أنها اشتملت على ضميرين راجعين إليها[1] وإذا كان الأولى فى جملة تبغونها أن تعرب حالاً كان القياس أن تأتى بغير الواو لأن الواو لا تزاد مع الفعل إذا وقع حالاً.

قال عبد القاهر:

"وإن كانت الجملة من فعل وفاعل والفعل المضارع مثبت غير منفى لم يكد يجئ بالواو بل ترى الكلام على مجيئها عارية من الواو كقولك (جاءنى زيد يسعى غلامه بين يديه) وكقوله:

وقد علوت قَتُود الرحل يسفعنى يوم قديديمة الجوزاء مسموم[2]

وقوله:

ولقد أغتدى يدافع ركنى أَحْوَذِى ذو مَيْعة إضريج[3]

وكذلك قولك: جاءنى زيد يسرع. لافصل بين أن يكون الفعل لذى الحال وبين أن يكون لمن هو من سببه فإن ذلك كله يستمر على الغنى عن الواو وعليه التنزيل والكلام.

ومثاله من التنزيل قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ [المدثر].

وقوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [الليل] وكقوله عز اسمه: ﴿ ... وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام]..."[4].

هذا عن آية آل عمران. أما آية الأعراف فجملة تبغونها معطوفة على الحال، والحال قوله: (توعدون) و(تصدون) عطف عليه، وكذلك (تبغونها عوجاً).

---

(1) انظر إملاء ما من به الرحمن 2/104 والبحر المحيط 3/14.

(2) القتود: خشب الرجل- ويشفعه اليوم: يلفحه بحره فيؤثر فيه تأثير النار- وقديديمة: تصغير قدام. الجوزاء: برج من أبراج الشمس.

(3) الأحوذى: الحاذق- والميعة أول الشيء الذى تكون قوته فى ابتدائه والإضريج: الفرس الشديد العدو.

(4) دلائل الإعجاز 158، 159.

ونجد فى آية الأعراف زيادة (به) وكان القياس فى آل عمران : آمن به كما فى الأعراف، لكنها حذفت لموافقة قوله تعالى : ﴿ ... وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران] فإن القياس فيه أيضاً كفر به.

فانظر إلى هذا التناسب ومنتهى البلاغة التى يعجز البشر عن مراعاتها، فلو وضعت الجملة التى فى الأعراف مكان الجملة التى فى آل عمران لأدى إلى خلاف يدق فى الفهم ولا يدرك بسهولة لكنه كلام الحكيم العليم وصدق الله تعالى :

﴿ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء].

السر فى التعبير بالواو فى بعض المواطن وبـ(ثم) فى بعضها الآخر

قال الله تعالى فى سورة آل عمران :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ .

وقال عز وجل فى سورتى التوبة والتحريم الآية (٩) :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) ﴾ [التوبة] .

وقال عز اسمه فى سورة التوبة :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾ .

جاء فى سورة آل عمران (ثم مأواهم) وفى غيرها (ومأواهم) والسر فى ذلك .

أن (ثم) للترتيب والتراخى فناسب ذلك أن تأتى فى آية آل عمران، وذلك لسبقها بقوله تعالى :

(متاع قليل) والمتاع حتى وإن كان قليلاً يحتاج إلى مدة والمدة يناسبها التراخى .

أما فى غيرها من الآيات الكريمة فلم يوجد مثل ذلك .

السر فى حذف المفعول

قال الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص].

إذا نظرنا فى تلك الآيات الكريمة وجدناها جاءت على أعلى درجة من البلاغة التى كان من أسبابها حذف المفعول فى أربعة مواضع، إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقى غنمنا، فسقى لهما غنمهما.

قال عبد القاهر:

"ثم إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقاً وماذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود.

وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى، فأما ما كان المسقى غنماً أم إبلاً أو غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، "جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: مالك تمنع أخاك؟ كنت منكراً لمنع لا من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت لأن حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه"(1).

(1) دلائل الإعجاز ص124، 125.

السر فى عطف الاسم على الفعل
فى قوله تعالى: (ومخرج الميت من الحي)

قال الله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ... ⁽٩٥⁾ ﴾.

وقال سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿ ... وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ... ⁽٢٧⁾ ﴾.

وقال سبحانه فى سورتى يونس والروم الآية 19:

﴿ ... يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ... ⁽٣١⁾ ﴾ [يونس].

والسر فى الإتيان بلفظ الاسم فى آية سورة الأنعام أنه تقدم عليه اسم وهو فالق، وتأخر عنه اسم وذلك فى قراءة الكوفيين، وفى قراءة باقى السبعة تأخر عنه اسمان حيث قرأوا "وجاعل الليل سكناً".

وذلك بخلاف ما فى آل عمران لأن ما قبله وما بعده أفعال، وذلك من إعجاز القرآن الكريم.

الإعجاز البياني

والقرآن غاية في البيان، وقمة في الفصاحة والبلاغة.

وقد تكلم المتكلمون في الإعجاز البياني للقرآن، واشتهر عبد القاهر الجرجاني بأنه صاحب مذهب الإعجاز بالنظم، واشتهر أبو بكر الباقلاني بأنه أول من بسط القول في بلاغة القرآن.

ونظرية الإعجاز بالنظم مال البعض إلى أنها تشير إلى أن السر في جمال القرآن عذوبته في السمع وهشاشته في النفس بما لا يتوافر في غيره وذلك راجع إلى مجيئه على نمط معين ونظام خاص يحس ولا يدرك سره، ولا يوقف لهذه العذوبة على علة. لكن المحققين قالوا:

إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، وتخر الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها أمر لابد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحق هذا الوصف(1).

وقد ذهب أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجي إلى أن الإعجاز البلاغة في القرآن الكريم تمثل في استمرار البلاغة في جميعه قال في كتاب منهاج البلغاء.

"إن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالم منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه، والفترات في الفصاحة تقع للفصيح، إما بسهو يعرض له في الشيء من غير أن

---

(1) ينظر الإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطئ، ص201.



يكون جاهلاً به، أو من جهل به، أو من سآمة تعترى فكره، أو من هوى للنفس يغلب عليها فيما يحوش عليها خاطره من اقتناص المعانى سميناً أو غثاً، فهذه آفات لا يخلو منها الإنسان الفاضل الطبع الكامل"(1).

فهذا القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعانى، من توحيد الله تعالى وتنزيهه فى صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته فى تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شىء منها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه، ولا يتوهم فى صورة العقل أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقلة فى الأعصار الماضية من الزمان، جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضته فى شكله، ثم سار المعاندون له، ممن كفر به وأنكره، يقولون مرة إنه شعر لما رأوه منظوماً، ومرة إنه سحر لما رأوه معجوزاً عنه، غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعاً فى القلب، وقرعاً فى النفس، يريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف، ولذلك قالوا: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة"(2).

وقال القاضى أبو بكر: وجه إعجازه ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم. قال: ولهذا لم يمكنهم معارضته.

---

(1) ينظر البرهان 2/ 101، والإتقان 4/ 10.

(2) انظر البرهان 2/ 103، 104.

وقال: ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التى أودعوها فى الشعر، لأنه ليس مما يخرق العادة، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به، كقول الشعر، ورصف الخطب وصناعة الرسالة، والحذف فى البلاغة، وله طريق تسلك، فأما شأو نظم القرآن فليس له مثل يحتذى، ولا إمام يقتدى به، لا يصح وقوع مثله اتفاقاً. قال: ونحن نعتقد أن الأعجاز فى بعض القرآن أظهر، وفى بعضه أدق وأغمض.

وقال الإمام فخر الدين: وجه الإعجاز، غرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب.

وقال الزملكانى: وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزِنَة، وعلت مركباته معنى، بأن يوقع فى كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى.

وقال ابن عطية: الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه، أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه؛ وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية (القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان فى قدرتها الإتيان بمثله، فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط. ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً، ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد. ونحن تتبين لنا البراعة فى أكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق، وجودة القريحة. وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة فى معجزات الأنبياء بالوجه

الشهير أبرع ما تكون فى زمن النبى الذى أراد إظهار، فكان السحر قد انتهى فى مدة موسى إلى غايته وكذلك الطب فى زمن عيسى، والفصاحة فى زمن محمد ﷺ[1].

وقال المُرَّاكِشي فى شرح المصباح: الجهة المعجزة فى القرآن تعرف بالتفكر فى علم البيان، وهو كما اختاره جماعة فى تعريفه ما يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى، وعن تعقيده وتعرف به وجود تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال؛ لأن جهة إعجازه ليست مفردات، وإلا لكانت قبل نزوله معجزة، ولا مجرد تأليفها؛ وإلا لكان كل تأليف معجزاً، ولا إعرابها وإلا لكان كل كلام معرب معجزاً، ولا مجرد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً، والأسلوب الطريق، ولكان هذيان مسيلمة معجزاً؛ ولأن الإعجاز يوجد دونه أى الأسلوب فى نحو: ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا** ... ⟨٨٠⟩ ﴾ [يوسف]، و﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ... ⟨٩٤⟩ ﴾ [الحجر]، ولا بالصرف عن معارضتهم؛ لأن تعجبهم كان من فصاحته ولأن مسيلمة وابن المقفع، والمعرى، وغيهم قد تعاطوها فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع، وتنفر منه الطباع، ويضحك منه فى أحوال تركيبه، وبها أى بتلك الأحوال أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء، فعلى إعجازه دليل إجمالى، وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها، فغيرها أحرى، ودليل تفصيلى مقدمته التفكر فى خواص تركيبه، ونتيجته العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علماً.

وقال الأصبهانى فى تفسيره: اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه، والثانى بصرف الناس عن معارضته، فالأول إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه، أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره؛ الذى هو اللفظ والمعنى؛ فإن ألفاظه ألفاظهم، قال تعالى: ﴿ ... **قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ... ⟨٢⟩ ﴾ [يوسف]، و﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ** ... ⟨١٩٥⟩ ﴾ [الشعراء]، ولا بمعانيه فإن كثيراً منها موجود فى الكتب المتقدمة، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ** ⟨١٩٦⟩ ﴾ [الشعراء].

---

(1) مقدمة التفسير المطبوعة 278، 280، ونقله الزركشى فى البرهان 2: 97.

وما هو فى القرآن من المعارف الإلهية وبيان المبدأ والمعاد والإخبار بالغيب؛ فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن، بل لكونها حاصله من غير سبق تعليم وتعلم، ويكون الإخبار بالغيب إخباراً بالغيب؛ سواء كان بهذا النظم، أو بغيره، مورداً بالعربية أو بلغة أخرى، بعبارة أو بإشارة، فإذن النظم المخصوص هو صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالخاتم والقرط. والسوار، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماءها، لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة والحديد، فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتماً، وإن كان العنصر مختلفاً، وإن اتخذ خاتم وقرط وسوار من ذهب اختلفت أسماءها باختلاف صورها، وإن كان العنصر واحداً.

قال: فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه، فنقول: مراتب تأليف الكلام خمس:

الأولى: تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض، لتحصل الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف.

والثانية: تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض، لتحصل الجمل المفيدة، وهو النوع الذى يتداوله الناس جميعاً فى مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام.

والثالثة: ضم بعض ذلك إلى بعض ضماً له مباد ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم.

والرابعة: أن يعتبر فى أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له المسجع.

والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن، ويقال له الشعر: والمنظوم، إما محاورة ويقال له الخطابة وإما مكاتبة ويقال له الرسالة؛ فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام، ولكل من ذلك نظم مخصوص، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على

نظم غير نظم شيء منها، يدل على ذلك أنه لايصح أن يقال له، ورسالة، أو خطابة، أو شعر، أو سجع، كما يصح أن يقال: هو كلام، والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ماعداه من النظم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ... (٤٢) ﴾ [فصلت]، تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الأخرى.

قال: وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته، فظاهر أيضاً إذا اعتبر؛ وذلك أنه ما من صناعة محمودة كانت أو مذمومة؛ إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية، واتفاقات حملية؛ بدليل أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف، فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه فى مباشرتها، فيقلبها بانشراح صدر، ويزاولها باتساع قلب، فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون فى كل واحد من المعانى بسلاطة لسانهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، ولم يتصدوا لمعارضته لم يخف عن أولى الألباب أن صارفاً إلهياً صرفهم عن ذلك، وأى إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزة، فى الظاهر عن معارضته، مصروفة فى الباطن عنها. انتهى.

وقال السَكَّاكى فى المفتاح: اعلم أن إعجاز القرآن يدرك، ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيهما.

وقيل فى إعجاز القرآن الكريم: إنه شيء لا يمكن التعبير عنه.

وهذا ما اختاره السكاكى حيث قال: "ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين، نعم للبلاغة وجوه ربما تيسرت إماطة اللثام عنها، أما نفس الإعجاز فلا"(1).

---

(1) مفتاح العلوم ص221.



فهو يرى أن الإعجاز يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك، ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا لصوت، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرن فيهما . وقال أبو حيان التوحيدى فى البصائر:

"لم أسمع كلاماً ألصق بالقلب وأعلق بالنفس من فصل تكلم به بندار بن الحسين الفارسى– وكان بحراً فى العلم – وقد سئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال: هذه مسألة فيها حيف على المفتى، وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، ودللت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شىء منه إلا وكان ذلك المعنى آية فى نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله، وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه، وأسراره فى كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده" .

وقد جاء القرآن على درجة من الفصاحة فاقت كلام العرب بالرغم من أنه قد اجتمعت وجوه كثيرة فى القرآن كانت تقتضى أن يأتى ناقص الفصاحة، ومع ذلك بلغ النهاية التى لا غاية وراءها، فدل ذلك على كونه معجزاً. وهذه الأمور التى كانت تقتضى نقصان الفصاحة ومع ذلك بلغ القرآن الغاية فيها[1] :

أولها: أن فصاحة العرب أكثرها فى وصف مشاهدات مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو غارة، وليس فى القرآن من هذه الأشياء شىء، فكان يجب ألا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التى اتفقت العرب عليها فى كلامهم، لكن القرآن على الرغم من ذلك جاء فى غاية الفصاحة.

وثانيها: أنه تعالى راعى فى القرآن طريقة الصدق، وتنزه عن الكذب فى جميعه، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيداً، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما، ولم يكن شعرهما

(1) ينظر مفاتيح الغيب للرازى2/510، 511.

الإسلامى فى الجودة كشعرها الجاهلى؟ وأن الله تعالى، مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة، جاء بالقرآن فصيحاً بل فى غاية الفصاحة.

وثالثها: أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق فى القصيدة فى البيت والبيتين، والباقى لا يكون كذلك، وليس كذلك القرآن، لأن كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه.

ورابعها: أنه اقتصر على إيجاب العبادات، وتحريم القبائح، والحث على مكارم الأخلاق، وترك الدنيا واختيار الآخرة، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة، ومع ذلك لم يحدث.

وخامسها: أنهم قالوا: إن شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء ووصف الخيل، وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه فى فن فإنه يضعف كلامه فى غير هذا الفن، أما القرآن الكريم فإنه جاء فصيحاً فى كل الفنون ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال فى الترغيب: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ... (17)**﴾ [السجدة]. وقال تعالى: ﴿**... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ... (71)**﴾ [الزخرف]، وقال فى الترهيب: ﴿**أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ... (68)**﴾ [الإسراء]. وقال: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)**﴾ [الملك].

وقال: ﴿**... وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ... (17)**﴾ [إبراهيم]. وقال فى الزجر ما لا يبلغه وهم البشر، وهو قوله: ﴿**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (40)**﴾ [العنكبوت].

وقال فى الوعظ مالا مزيد عليه:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾ [الشعراء].

وقال فى الإلهيات:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾ [الرعد].

وسادسها: أن القرآن أصل العلوم كلها، فعلم الكلام كله فى القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه، وعلمي النحو واللغة، وعلم الزهد فى الدنيا وأخبار الآخرة، وعلم مكارم الأخلاق وقد بلغ القرآن الكريم فى جميع ذلك النهاية القصوى فى البلاغة[1].

ومن إعجاز القرآن:

أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت، ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح.

أما نظم القرآن الكريم فجميع ما يتصرف فيه من الوجوه المذكورة جاء على حد واحد، فى حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط على المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وبلاغة القرآن مستمرة مع طول

(1) ينظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى 2/510–512.

الآيات وقصرها، ومع إعادة للقصة الواحدة جاء جميع ذلك على أعلى درجة من البلاغة[1].

يقول الباقلانى:

"وكـذلك قـد تأملنا مـا ينصـرف إليـه. وجـه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف.

وكـذلك قد يتفـاوت كلام النـاس عند إعادة القصة الواحدة تفاوتاً بيناً، ويختلف اختلافاً كبيراً، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار، وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب"[2].

فكل من قال شعراً فصيحاً فى وصف شىء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه فى وصف ذلك الشىء بمنزلة كلامه الأول وفى القرآن الكريم التكرار الكثير، ومع ذلك كل واحد منه فى نهاية الفصاحة، ولم يظهر التفاوت أصلاً[3].

ولم ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغتهم، ولا وجه من وجوه فصاحتهم.

وليس الإعجاز متعلقاً بذلك.

إلا أن هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة، آخذة بحظها من الحسن والبهجة، متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المستبشع[4].

فقد ذكروا أن من البديع فى القرآن الكريم قوله عز وجل: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء].

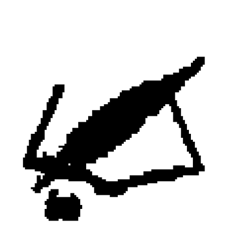
---

(1) ينظر إعجاز القرآن للباقلانى ص54، 55.

(2) إعجاز القرآن ص56.

(3) ينظر مفاتيح الغيب 2/511.

(4) انظر إعجاز القرآن للباقلانى ص170.



وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿ ... وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ... (٤) ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾ [يس].

وقوله: ﴿ ... أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ﴾ [الحج].

وقوله: ﴿ ... نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ... (٣٥) ﴾ [النور].

وقد يكون البديع فى الكلمات الجامعة الحكيمة كقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ... (١٧٩) ﴾ [البقرة].

وقد يكون البديع فى الألفاظ الفصيحة، كقوله: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ... (٨٠) ﴾ [يوسف].

وفى الألفاظ الإلهية: التى لا تصدر إلا عن إله: قوله تعالى: ﴿ ... وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ... (٩١) ﴾ [النمل]، وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... (٥٣) ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿ ... لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر][1].

ومن التشبيه الحسن فى القرآن: قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن].

وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات][2].

ومن الاستعارة فى القرآن: قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ... (١٣٨) ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ ... اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ... (١٦) ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ... (٤٤) ﴾ [الزخرف] يريد: ما يكون الذكر عنه شرفاً.

---

(1) وانظر إعجاز القرآن للباقلانى ص101، 102.

(2) وانظر إعجاز القرآن للباقلانى ص112.

ومن البديع المبالغة فى الصفة وقد جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق].

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ... (٨) ﴾ [الملك].

وهنا من المفسرين من ركز جهده على استنباط الأسرار البيانية، والمعانى الخفية، والنكت الحسان والأسرار والبيان، مما يجلى جوانب كثيرة من الإعجاز القرآنى. ومنهم الزمخشرى، وقد أشار إلى ذلك فى مقدمة تفسيره:

واعلم أن متن كل علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وإقناع الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدم الصانع الصانع لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة.

وإنما الذى تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عد ألف بواحد، ما فى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها باحث للفكر، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنهم من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عماة عن إدارك حقائقها بأحداقهم"[1].

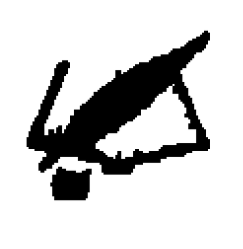
ومن إعجاز القرآن:

عدم محاولة العرب معارضته والإتيان بمثله رغم تحديه لهم فى اكثر من موضع.

ورغم عداء المشركين للقرآن ومحاربتهم للرسالة إلا أنهم لم يقبلوا على معارضته، لعلمهم بأنه زاد على كلامهم فى الفصاحة بقدر زائد عن العادة. وقد فصل القول فى ذلك الفخر الرازى حيث قال:

---

(1) الكشاف للزمخشرى 1/13-15.



"إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة، إما أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقص العادة، أو زائداً عليه بقدر ينقص، والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث، وإنما قلنا إنهما باطلان، لأنه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين أو منفردين.

فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحكام يزيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج، لأنهم كانوا في معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية، حتى بذلوا النفوس والأموال، وارتكبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحَميَّة والأنفة على حد لا يقبلون الحق، فكيف الباطل، وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله، والمعارضة أقوى القوادح، فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة، فوجب أن يكون معجزاً"[1].

فقد كان انصراف العرب عن محاولة المعارضة لعلمهم أن محاولتهم ستبوء بالفشل، وأنه سيظهر البون الشاسع بين كلامهم وكلام الحق سبحانه وتعالى، مما يجعلهم يبوءون بالخيبة ويكونون عرضة للسخرية منهم، وقد يستتبع ذلك الحجة للقرآن فانصرفوا عن ذلك.

وقد زعم أبو إسحاق النظام أن إعجاز القرآن بالصرفة. بمعنى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن الكريم ومحاولة الإتيان بمثله، واعتبر ذلك إعجازاً للقرآن الكريم.

وهذا قول مردود عليه بعدة أمور منها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء].

---

(1) مفاتيح الغيب 2/510، 511.

فهذا دليل على عجزهم مع بقاء قدرتهم على محاولة المعارضة، ولو كان الله هو الذى قد سلبهم القدرة على المعارضة لم يكن هناك فائدة من اجتماعهم لأنه حينئذ سيكون بمنزلة اجتماع الموتى.

هذا مع أن الإجماع منعقد على أن الإعجاز مضاف إلى القرآن فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى، حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله.

فلو كانت المعارضة ممكنة والمانع منها هو الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً وإنما يكون المنع هو المعجز فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره.

ومن إعجاز القرآن: روعته فى قلوب السامعين:

قال الخطابى: "وقد قلت فى إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس، وهو صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال، ومن الروعة والمهابة فى حال آخر ما يخلص منه إليه قال تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ... (٢١)﴾ [الحشر].

وقال: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ... (٢٣)﴾ [الزمر].

ويقول الزركشى:

ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته.

وقد أسلم جماعة عند سماع آياته منهم جبير بن مطعم، فإنه سمع النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور قال: فلما بلغ قوله: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ** (٣٧)﴾ [الطور].

كاد قلبى أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى[1].

ومن إعجاز القرآن: جمعه لمراتب البيان فى أسلوب واحد:

فإن أجناس الكلام مختلفة ومراتبه فى درجات البيان متفاوتة فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع النوعين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ليكون آية لنبيه محمد ﷺ.

والعلماء على مالهم من الاقتدار وسعة المعرفة وقفوا مبهورين أمام إعجاز القرآن فذكروا من الإعجاز: جودة الرصف، وحسن النظم، وأحياناً يذكرون وجوهاً يقولون إنه لا يمكن وصفها. كما قال السكاكى فى مفتاح العلوم: "إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة وطيب النغم، ولا يدرك تحصيل ذلك لغير ذوى الفطرة السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان.

وسئل بندار الفارسى عن موضع الإعجاز فى القرآن فقال: "هذه مسألة فيها حيف على المعنى، وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان، فالقرآن لشرفه لا يشار إلى شىء فيه إلا وكان المعنى آية فى نفسه، ومعجز لمحاوله، وهدى لقائله، وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه وأسراره فى كتابه، فلذلك حارت العقول، وتاهت البصائر".

---

(1) انظر البرهان 2/106.

ومن إعجاز القرآن: الموازين الدقيقة بين اللفظ والمعنى:

فالله تعالى يعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك القرآن كله من أوله إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول.

يقول ابن عطية:

"وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد".

وقد أكمل ابن سُراقة هذا المعنى فقال:

" إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته، فكان ذلك أبلغ فى الدلالة على إعجازه".

وقد أدخل الفخر الرازى فى هذا الباب علم مناسبات السور وارتباط بعضها ببعض.

ومن إعجاز القرآن الحكمة فى افتتاح السور:

فمن السور ما استفتح بالثناء إثباتاً، ومنها ما استفتح بالثناء تنزيهاً، ومنها ما استفتح بحروف التهجى، ومنها ما استفتح بالنداء، ومنها ما استفتح بالجمل الخبرية، ومنها ما استفتح بالقسم ومنها ما استفتح بالشرط، والأمر، والاستفهام والدعاء والتعليل.

فما استفتح بالثناء فى سور:

الحد لله رب العالمين فى خمس سور.

سورة الفاتحة: الحمد لله رب العالمين.

وسورة الأنعام: الحمد لله الذى خلق السموات والأرض.

وسورة الكهف: الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب.



وسورة سبأ: الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض.

وسورة فاطر: الحمد لله فاطر السموات والأرض.

والتنزيه فى سبع سور:

سبحان الذى أسرى بعبده: فى سورة الإسراء.

سبح اسم ربك الأعلى: سورة الأعلى.

سبح لله ما فى السموات: سورة الحديد والحشر والصف.

سبح لله: فى سورتى الجمعة والتغابن.

ومن الأسرار الإلهية العظيمة:

أن الله سبحانه وتعالى استأثر بهذه الكلمة: فبدأ بالمصدر منها فى سورة الإسراء.

ثم الماضى سبح لأنه أسبق الزمانين فى الحديد والحشر والصف.

ثم المستقبل يسبح فى الجمعة والتغابن.

ثم الأمر سبح فى سورة الأعلى.

وهى أربع: المصدر والماضى والمستقبل والأمر فهذه أعجوبة وبرهان.

الإعجاز فى التناسب بين الآيات والسور:

مناسبات الآيات والسور لبعضها لون من الإعجاز البين وفى ذلك علم جم.

وعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعانى لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب فيها ذلك، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم فى غاية النفاسة.

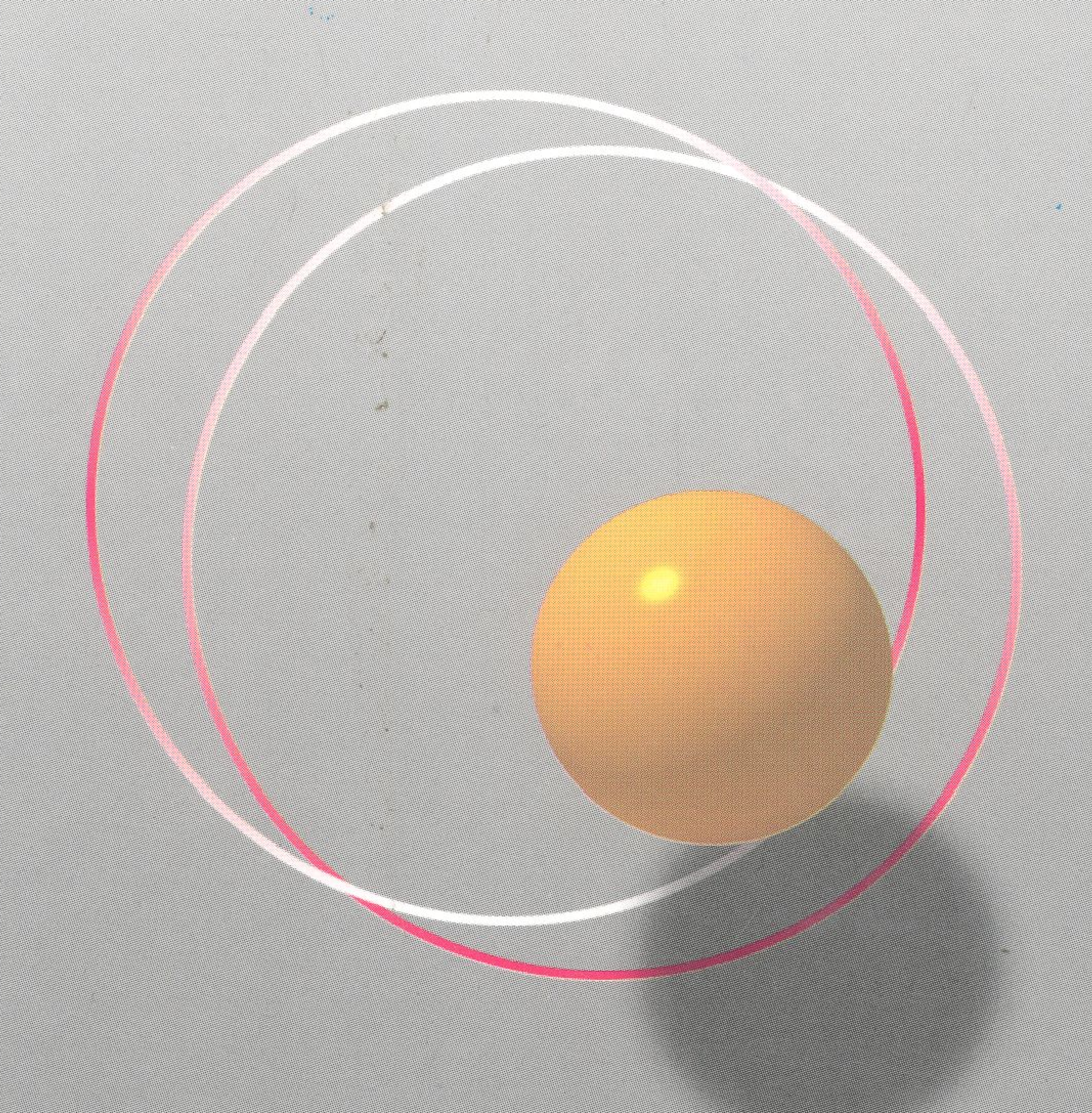
وأكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط، وقد وهم من قال: لا يطلب للآى الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجزة البينة أسلوبه ونظمه الباهر، وقد نقل الإمام شمس الدين محمود الأصفهانى فى تفسير قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ ... (٢٨٥)﴾ [البقرة] عن الإمام الرازى أنه قال: "ومن تأمل لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظمه"[1].

---

(1) انظر نظم الدرر 1/ 6.

الفهرس






الدلالة والاشتقاق فى اللغة
إعجاز القرآن